

الفصل الثامن

تطور النثر وفنونه

١

تطور النثر

كان العصر العباسي الأول عصرًا خطيرًا حقاً في تطور النثر العربي ، إذ تحوت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية ، بحيث تدخل جميع ذلك في تركيبه واثلف مع نسيجه ، وتولد منه جديد تلوّ جديد .

وتم هذا التحول - كما مرّ بنا في الفصل الثالث - عن طريقين : طريق النقل والترجمة ، وهو طريق عُنِيَ به الخلفاء العباسيون - ووزراؤهم وخاصة البرامكة - إلى أبعد حد ممكن ، كما عُنِيَ به أفراد مختلفون مثل ابن المقفع وآل نوبخت . وطريق ثانٍ لعله كان أوسع مجرى ، هو تعرب شعوب الشرق الاوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط ، بل انتقلوا أيضاً بعاداتهم وتقاليدهم وطرائقهم في المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة ، بل مما هيأ لظهور المدنية العربية في تلك الأقاليم التي دانت بالإسلام ، وهي مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والحلقية ومن الأدب العربي بشعره ونثره ومن صور الحياة العقلية والمادية في المحيط العربي الجديد .

وعلى سُنَنِ من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطوراً واسعاً ، إذ حمل خلاصة هذه المدنية ومثلت أوائه بشرابها الجديد الذي اختلفت ألوانه باختلاف بناييعه الكثيرة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع . وقد أظهر النثر العربي مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوى كل هذه الينابيع وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كعجري نهر كبير ترفده جداول من ثقافات متنوعة تنوعاً لا يكاد يُحمدُ أو يحصى ،

وكل جدول يذوب في النهر بمجرد دخوله فيه ، إذ يتحول عربياً ، ويتحول معه كل ما يحمل من سيول المعارف ، حتى الفلسفة والعلوم فإنهما لم يستعصيا على هذا التحول ، إذ سرعان ما صبَّتا في قوالب عربية ملائمة .

وكان ذلك إيداناً بتعدد شعَب النثر العربي وفروعه ، فقد أصبح فيه النثر العلمي والنثر الفلسفي ، وأصبح فيه أيضاً النثر التاريخي ، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة ، وحتى النثر الأدبي الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجمته عن هذه اللغة لقصص كليلة ودمنة الهندي الأصل ونقله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونظمهم في السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر في الرسائل الديوانية وفي نشوء الرسائل الأدبية التي تُعنى بالكتابة في موضوع محدود ، مما نسميه اليوم باسم المقالات ، إذ يعالج الكاتب موضوعاً في طائفة من الصحف .

ولم يقف النثر العربي عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التي جاءت من لدن الأجانب ، فقد انبثت العبقرية العربية في هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشرعية ، وهو وضع كان واسع الأثر في تمهيد اللغة وتيسيرها وجعلها لغة علمية محدّدة الألفاظ والاصطلاحات التي ترسم المعاني رسماً دقيقاً . وقد مضت هذه اللغة تركّز ركضاً لا في مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل أيضاً في مجال العلوم الطبيعية والكونية ، فإذا لنا علماء كياويون ورياضيون مختلفون ، لهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

وعلى نحو ما أثمرت العقلية العربية في المجال العلمي أثمرت في المجال الفلسفي وخاصة في بيئات المتكلمين ، إذ مدّوا مباحثهم في العقائد الإيمانية إلى كل شعب الفلسفة ، واستطاعوا - وخاصة المعتزلة منهم - بأنظارهم العقلية أن يدّوا في جميع هذه الشعب بآراء جديدة طريفة على نحو ما يفصل ذلك الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » حين يعرض لمذاهب المعتزلة المختلفة وما يتقاونه في الأجسام والأعراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والظفرة والوجود والعدم والروح والنفس والعقل وإدراك الحواس والكم والكيف والألوان والخير والشر . وكل ذلك كان له آثار بعيدة في النثر العربي ، لا من حيث الألفاظ

والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضاً من حيث ذخائر الفكر الفلسفي اليوناني والعربي التي التقت في أوعيته وأوانيه والتي جعلته يعرف صوراً من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها ، كما جعلته يعرف القياس المنطقي الصحيح وطرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعاني وفرق ما بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنوع والفصل والخاصة وما بين الحجة والشبهة والممكن والحال والمعقول والموهوم والبرهان الجلي والبرهان الخفي ، مما جعل الفكر العربي يتحول إلى ما يشبه كثيراً سائلاً بما لا يُخصّي ولا يُستقصّى من الخواطر والمعاني .

ومن المؤكد أن التعبير عن كثير من هذه المعاني والخواطر لم يكن مألوفاً للعربية ، غير أنه قيّض لها من نابهى المتكلمين والكتّاب والمترجمين من مدّ طاقتها وجعلها تسيع تلك الخواطر والمعاني دون دخول أي ضييمٍ عليها من شأنه أن يحو طوابعها أو يجور على خصائصها ومقوماتها ، بل لقد أخذت تونق في أثناء هذا التحول العقلي والحضاري وما صحبه من تراكيب وصيغ مستحدثة لا عهد لها بها سواء في المجال العلمي والفلسفي أو في المجال الأدبي الخالص .

ولم تقف المسألة عند احتفاظها بالقوالب العربية وأوضاعها اللغوية وتسير هذه القوالب والأوضاع وتذليلها للمعاني العلمية والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ورسمها ربما محمداً دقيقاً ، بل امتدت إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، أسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والتجاني عن الألفاظ الغامضة والمعاني المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأداء البليغ ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامع بعذوبة منطقته ، بل بحيث يسلّد الأذان حين تستمع إليه كما يلد العقول والقلوب .

وهو أسلوب قام على هتجر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافية التي تنبؤ على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المتبدلة ، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورضانته والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة في الجرس الصوتي . وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب ، إذ اتخذ لنفسه أصولاً بيانية تُشيع فيه الرونق والجمال ، مما جعل جهابذته يتساءلون طويلاً عن البلاغة ، وهو سؤال يلقانا في جميع البيئات وتلقانا معه أجوبة كثيرة .

والطريف أنهم لم يكتفوا في ذلك بما قد يكشفونه ببصائرهم الحاذقة ، إذ مضوا يطلبون ما عند الأمم الأجنبية من وصايا في البيان والبلاغة سواء الفرس أو اليونان أو الرومان^(١) ، وحتى الهنود ، إذ نجد معمرًا صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة يتعرض لبهلة الطبيب الهندي في عصر البرامكة يسأله عن رأى أمته في البلاغة ، فيعطيه في ذلك صحيفة مكتوبة بالسسكريتية ، ويقول له إننى لا أحسن ترجمتها لك ، لأننى لم أعالج صناعة البلاغة فأثق من نفسى بالقيام بأداء معانيها وخصائصها على الوجه الصحيح ، ويسلّمتهى معمر بالصحيفة الترجمة الذين يحسنون النقل من السنسكريتية إلى العربية فينقلونها له ، وقد احتفظ بها الجاحظ في البيان^(٢) والتبيين ، وهى تطلب إلى الخطيب أن يلائم بين كلامه ومستمعيه وأن يحرص على الوضوح ويتجافى عن الألفاظ الوعرة والأخرى الغامضة وأن لا يتنح ألفاظه كل التنقيح إلا لمن حاز قسطا من الحكمة والفلسفة ممن خبروا الكلام والمعانى ، وأن يحرص على استخدام الألفاظ المحددة البينة التى تنفى بمعانيها وتؤديها أداء سليما دون زيادة أو نقص .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا في هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التى تقوم عليها براعة القول ، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام ، أو بعبارة أخرى فن المناظرة في المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المعانى الفلسفية . ونستطيع أن نجد مقدماتهم في العصر الأموى وفي مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلو الأحزاب السياسية فيتحاورون في مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذلك إقناع خصمه أو قوره والغلبة عليه بالحجة القاطعة والبيان الخلاب . وما نصل إلى العصر العباسى ، بل إلى أواخر العصر الأموى ، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويتقطعه عن الكلام قطعاً .

وطبعى أن يدفع ذلك المتكلمين ومن حولهم إلى التساؤل عن البراعة في القول والأسس التى تقوم عليها وأن ينثر المتكلمون الحاذقون في ذلك بعض ملاحظات عن البيان والبلاغة ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا سائلا يتعرض لمعتزلى كبير في

(١) البيان والتبيين ١/٨٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٢ .

أوائل هذا العصر ، هو عمرو بن عبَّيد ، فيسأله عن البلاغة وقُطِبها الذى تدور عليه ، ويجيبه بأنها « تخير اللفظ فى حسن الإفهام وتزيين المعانى بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان^(١) » . ويدور السؤال طوال العصر وتتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العتَّابى لسائل سأله عن البليغ والبلاغة ، فقال له^(٢) :

« كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استغاثة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستغاثة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هتاه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمع منى ، واستمع إلىّ ، وأفهم عنى ، أو لست تفهم ؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عيٌّ وفساد »

وواضح أن العتَّابى يجعل البلاغة فى التدفق البيانى دون إعادة وتكرار ودون حَصْر وعيٍّ ، ودون استغاثة بمحو يؤذى الذوق الحضريّ المهذب . وتلك هى البلاغة العادية ، أما البلاغة الرفيعة فهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعانى ، وهى التى تبلغ من الحدق ما تعرض به الباطل فى صورة الحق معتمدةً على خلابة اللسان وتزيين المعانى فى القلوب ، والاحتيال على ذلك والتلطف له حتى يُرى كأنه الحق الذى لاحق وراءه . وهو يستوحى ذلك من قدرة المتكلمين حوله فى مناظرة خصومهم وإفحامهم بالحجج الصحيحة تارة ، وتارة بالحجج غير الصحيحة التى يستطيع البليغ التام الذى يتقن أبنية الأدلة والكلام أن يموهها على السامع حتى يظن أنها صحيحة صحة تامة . ولا نبالغ إذا قلنا إن صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتفظ بها الجاحظ فى بيانه^(٣) هى أروع ما أُثر عن المعتزلة فى هذا العصر بصدد الأصول البلاغية العامة ، وهو يستهلها بأن الأديب سواء كان خطيباً أو كاتباً أو شاعراً ينبغي أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعداً متهيئاً تمام التهيؤ ، فارغ البال ناشطاً له تمام النشاط . وينصحه

(٣) البيان والتبيين ١/١٣٥ والصناعتين

(طبعة الحلبي) ص ١٣٤ .

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/١١٣ .

باختيار ألفاظه وتفصيلها على المعاني بحيث تكون بقدرها لا فاضلة عنها ولا مقصرة ، كما ينصح به بأن تخلو ألفاظه من كل غريب وكل تعقيد ، وأن تؤدي دلالتها أداء واضحاً مهما كانت دقيقة عسيرة وأن تتلاءم معها بحيث تؤديها أداء تاماً يحيط بدقائقها إن كانت من الدلالات الغامضة ، وفي الوقت نفسه تُلقَى عليها كل ما يمكن من أضواء تكشفها من جميع أطرافها ، مع تذليلها وتيسيرها وعرضها في لغة متوسطة بين لغة العامة المتبدلة ولغة الأعراب الحسنة المملوءة بالغريب . وينصح من لا تواتيهم طبائعهم بالرصف الحسن للألفاظ ووضعها في مواضعها الصحيحة دون نبو أو شذوذ أن يكفوا أنفسهم عن صناعة البيان والكلام البليغ ، وأولى منهم بهذا الكف والهجران لتلك الصناعة من تقعد بهم طبائعهم مهما أجهدوا أنفسهم عن الإتيان بشيء من الكلام له روعة أو ما يشبه الروعة . ولا يكفي للبليغ أن يلائم بين كلامه ومعانيه أو بعبارة أخرى بين كلامه والموضوع الذي يتحدث عنه ، بل لا بد له من ضميمته ثانية هي إحسانه الملازمة بين كلامه والمستمعين وأحوالهم النفسية والعقلية ، بحيث يجدون في كلامه اللذة والمتاع ، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوصاف الناس أن لا يرتفع عن مداركهم بما يورد عليهم من اصطلاحات المتكلمين ، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم ، أما إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراد هذه المصطلحات التي يفهمونها فهماً حسناً ، والتي قد يجدون فيها شيئاً من المتاع .

وملاحظات كثيرة أخرى كان يلاحظها المتكلمون معتزلة وغير معتزلة في شئون البيان والبلاغة ، وهي متناثرة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، ولا بد أن ملاحظات أخرى سقطت منه ولم يسجلها . ولم يكن المتكلمون وحدهم الذين يتعمقون في معرفة أصول البيان والبلاغة ، فقد كان يَشْرِكُهُمْ فِي ذَلِكَ كِتَابُ الدَّوَاوِينِ وَالْمُرْجَمُونَ ، وَمِنْ خَيْرِ مَنْ يُمَثِّلُهُمْ فِي مَطَالِعِ الْعَصْرِ ابْنُ الْمُفْتَعِ ، وَيُرْوَى أَنَّهُ سَثَلَ عَنِ الْبَلَاغَةِ وَتَفْسِيرِهَا ، فَقَالَ (١) :

« البلاغة اسم جامع لمان تجرى في وجوه كثيرة ؛ فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً

وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحيّ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السّماطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطب والإطالة في غير إملال . وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته . فقيل له : فإن ملّ السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك ؟ قال : إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال .

وابن المقفع يذكر كل فنون الكلام ويطلب فيها الإيجاز والتركيذ الدقيق ، ويلتفت إلى خطب المحافل والصلح ويطلب فيها الإطناب في غير خطب ولا إملال . ويضع قاعدة مهمة أن يكون في صدر الكلام ما يدل على غرضه ، وهو ما سماه البلاغيون ، فيما بعد ، باسم براءة الاستهلال ، كما يضع للشعر قاعدة ثانية هي أن يتلاءم صدر البيت مع قافيته حتى لكأنه يستدعيها استدعاء وهو ما سماه البلاغيون باسم ردّ الأعجاز على الصدور . ويلاحظ ملاحظة تامة أن لكل من الإيجاز والإطناب في الكلام مقامه ، وأنه ينبغي دائماً أن يستوفى الكلام حقوقه من النصاعة والبلاغة والبيان .

وقد تحولت الدواوين الكثيرة المعقدة التي عرضنا لها في الفصل الأول إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة ، إذ كان لا بد للشبان الذين يعملون فيها من إتقانهم لصياغة الكلام بحيث لا يدخله ضعف ولا ابتذال وبحيث لا يعلو على أفهام العامة الذين كانوا يوجهون إليهم منشورات دار الخلافة . وكان هؤلاء الشبان يقيمون أولاً بأبواب الدواوين متعرضين لامتحان قاس ، فن أظنر كفاءته فيما طُلب إليه من بعض الرسائل رفع أمره إلى رؤساء الديوان ، فوظفوه ، وإن لم يُحسن ما طلب إليه ردّوه . وجعلهم ذلك يتساءلون عن البلاغة ومتى يُصحب الكلام بديعاً وما العيوب التي تعوق بلاغته ، ودارت هذه الأسئلة بين رؤساء الدواوين وبلغائها ، المفوّهين ، وكانوا يمثلون الذوق الحضاري المترف في أدق صورهِ فدقّقوا في كلامهم

إلى أبعد حد ممكن ، وعبروا فيه عن دقة مزاج ورهافة حِس بالغة ، حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أرَ قَطَّ أمثل في طريقة البلاغة من الكُتَّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً^(١) . »

وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر لكي ينمو ويزدهر ، فقد أخذ يمتدُّ ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبي ، إذ أخذت تتغذوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغذوه الثقافات الأجنبية وكل ما اتصل بها من الفكر اليوناني ، ومضى يتفارقاً مع ذلك كله محتفظاً بمقوماته وطوابعه العربية الأصيلة ، بحيث لم يحدث أيُّ ازدواج في اللغة يعرّضها للضياع ، بل لقد أينعت الفروع الجلديدة في شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكوّن فيها أزهار ذاكية الشدّي وثمار حلوة يانعة بفضل كبار الكتاب والمترجمين والناقلين الذين احتفظوا لها بأصولها وأوضاعها وأغونها ونموّها حتى في مجال الأساليب الخالصة ، إذ عرفوا كيف يستخلصون رحيقها البلاغي الذي يغدّي العقول ويشتّي القلوب والأفئدة .

٢

الخطب والوعظ والقصاص

نشطت الخطابة السياسية في مطالع هذا العصر ، إذ اتخذتها الثورة العباسية أدواتها في بيان حق العباسيين في الحكم ، وكانوا يحسّون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم ، فمضوا يؤكّدون في خطاباتهم أنهم أصحاب هذا الحق ، فهم الذين أدالوا للشعب من بني أمية وهم الذين قوّضوا حكمهم وحطّموه حطّماً ، وقد انهالوا عليهم بالتجريح والطعن العنيف ، على نحو ما يتضح في خطبة^(٢) أبي العباس السفاح حين بويع بالخلافة في الكوفة ، وفيها نراه يتحدث عن رحمتهم وقرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم تالياً من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل (إنما يريد

(٢) انظروا الخطبة في الطبري ٨١/٦ وما بعدها .

(١) البيان والتبيين ١/١٣٧ .

اللهُ ليذهب عنكم الرَّجْسَ أهلَ البيتِ ويطهركم تطهيراً) وما يلبث أن يعرض للسبئية من الشيعة الغالية قائلاً: « وزعمت السبئية الضُّلالُ أن غيرنا أحقُّ بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بهمَ ولمَ أيها الناس ، وبنا همدَى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم . . وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهلَ تعاطفٍ وِبرٍ » . ويتحدث عن الأمويين وظلمهم للرعية وكيف تداركها الله بهم وردَّ عليها حقوقها المسلوقة . وخطب عمه داود بن علي بنفس اللحن ، ويشيد بالحاظ ببيانه وفصاحته قائلاً إنه « كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول . وله كلام كثير معروف محفوظ » . ويروى من ذلك خطبته في أهل مكة حين وليها لابن أخيه ، وهي تمضي على هذا النمط : « شكرا شكرا . أما والله ما خرجنا لتحتفر فيكم نهراً ولا لبنى قصرًا ، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نظفر به إذ أرخى له في ذمامه ، حتى عثر في فضل خطامه . فالآن عاد الأمر في نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوسَ باريها ، وعادت النَّبيلُ إلى النَّزعة^(٢) ، ورجع الحق إلى مستقره في أهل بيت نبيكم : أهل بيت الرأفة والرحمة » .

ويموت السفاح سريعاً ، ويخلفه أبو جعفر المنصور ، ولم يكن في العباسيين أئيبٌ منه ولا أخطب ، وفي عهده تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي الملقب بالنفس الزكية بالمدينة ، لسنة ١٤٥ للهجرة ، ويتكاتبان كما مر بنا في الفصل الأول ، وكل منهما يؤكد حقه في الخلافة وإرثها عن الرسول الكريم . ويشهر كل منهما السلاح في وجه صاحبه ، كما يشهران الخطب ويرسلان سهام القول ، وكان محمد بن عبد الله لا يقل عنه لساناً وفصاحة ، ومن قوله في بعض خطبه^(٣) : « إن أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأَنْصارِ المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرّموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت ، فأحصيهم عدداً ، واقتلهم ببدأ^(٤) » ، ولا تُسبق على الأرض منهم أحداً . ولم يلبث المنصور أن قضى على هذه الثورة قضاء مبرماً ، ولم يعد العلويون

(٣) ذيل الأنال للقال ص ١٢١ .

(٤) بدأ : متفرقين .

(١) البيان والتبيين ١/٣٣١ وما بعدها .

(٢) النزعة : الرماة .

— كما أسلفنا في غير هذا الموضع — يحاولون الثورة جهاراً على أبناء عمهم ، بل عمدوا إلى السرية خوفاً من بطشهم وما عودوه الناس من إقناعهم بالسيف دون اللسان . وتضاءلت حينئذ — كما قدمنا — حركات الخوارج ، فلم يكن هناك إلا السيف أو الإذعان . وبذلك كُفِّت الأفواه ، وضعفت الخطابة السياسية في هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حين تُكفَّلُ للناس حرياتهم السياسية على نحو ما كان الشأن في عصر بني أمية، أما في هذا العصر فقد أخذ العباسيون الناس بالشدّة فضعفت الأحزاب السياسية وفنيت أو ذابت حريتهم في سلطانهم الباطش بكل مَنْ حدثته نفسه بخروجٍ عليهم بل بخلاف أو ما يشبه الخلاف ، وحقاً عادت الخطابة السياسية إلى الظهور في فتنة الأمين وحروبه مع أخيه المأمون ، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة في العصر الأموي وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه .

وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية التي كنا نعهد لها في عصر بني أمية لسبب طبيعي ، وهو أن وفود العرب لم تعد تَمْدُّ على قصور الخلفاء ، وبالتالي لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ، فقد أُسْدِلت الحجب بين الخليفة والرعية ، ولم يعد يَلْمَقَى وفودها ولا خطباءها المفوّهين . واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات كأن يموت للخليفة ابن أو بنت فيقف بعض الخطباء لتعزيتته ، وكان يموت خليفة ويتولى خليفة جديد فيجتمع بعض الخطباء بين التعزية والتهنئة، من مثل قول ابن عتبة للمهدى يهنئه بالخلافة ويعزّيه في أبيه المنصور^(١) :

« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقي أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فاقبَلْ يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسبْ عنده أعظم الرزية » .

وكان يُعَقَّمُ لبيعة الخليفة حفل عام يحضره القواد وكبار رجال الدولة ، وعادة يقف بعض الكتاب النابهين خطيباً بين يدي الخليفة الجديد منوهاً بجلال الخلافة وإرث الخليفة لها وما له على القواد ورجال الدولة والناس من الطاعة علويين

(١) البيان والتبيين ٢/١٩٢ .

وغير علويين ، على نحو ما يلقانا عند يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب في خطبته بين يدي الرشيد حين جلس بين القواد والأمراء والوزراء لأخذ البيعة له ، وهو يستهلها على هذا النمط بعد حمد الله والصلاة على رسوله (١) :

« إن الله بمنه ولطفه منّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وإياكم أهل الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التي لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضي مدى الأبد . وأياديه التامة أن جمع ألفتكم وأعلى أمركم ، وشدّ عضدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولي بها وأهلها ، فأعزّكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضى والذّابّين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدّم الحرام والآكلين النَّبِيَّ (٢) والمستأثرين به . »

وعلى هذا النحو أصبحت الخطابة الحقلية شيئاً نادراً يقال في الحين الطويل بعد الحين ، وبذلك تضاءلت كما تضاءلت الخطابة السياسية ولم يعد لها شأن يذكر .

وقد ظل للخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ازدهارها في هذا العصر ، وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بني أمية كانوا يشاركون فيها أيضاً لهذا العهد ، إذ نجد للمهدي خطبة بارعة مأثورة (٣) ، كما نجد للرشيد خطبة أخرى رائعة ، وفيها يقول (٤) :

« عبادَ الله إنكم لم تُخْلَسُوا عِثَابًا وَإِنْ تَشْرَكُوا سُدِّي ، حَصَّنُوا إِيْمَانَكُمْ بِالْأَمَانَةِ وَدِينَكُمْ بِالْوَرَعِ وَصَلَاتِكُمْ بِالزَّكَاةِ ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْخَيْرِ أَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ وَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا زَكَاةَ لَهُ » . إِنْكُمْ سَمَّوْهُ (٥) بِمَجْتَازِهِمْ وَأَنْتُمْ عَنْ قَرِيبٍ تَسْتَقْبِلُونَ مِنْ دَارِ فَنَاءٍ إِلَى دَارِ بَقَاءٍ ، فَسَارِعُوا إِلَى الْمَغْفَرَةِ بِالتَّوْبَةِ وَإِلَى الرَّحْمَةِ بِالتَّقْوَى وَإِلَى الْهُدَى بِالإِنَابَةِ

(٤) العقد الفريد ١٠٢/٤ .
(٥) السفر: الجماعة المسافرون .

(١) تاريخ الطبري ٤٤٢/٦ .
(٢) الفقيه : غنائم الحرب .
(٣) العقد الفريد ١٠١/٤ .

فإن الله ، تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهدايه للمنيبين .
 على أننا نجد الرشيد يستنُّ سنَّةً كانت سبباً في أن تضعف هذه الخطابة
 على ألسنة الخلفاء ، إذ طلب إلى الأصمعي أن يعدَّ لابنه الأمين خطبة يخطب
 بها يوم الجمعة^(١) ، كما طلب إلى إسماعيل اليزيدي وابن أخيه أحمد أن يعدَّ خطبة
 مماثلة يخطب بها المأمون^(٢) ، وبذلك سنَّ للخلفاء أن يخطبوا بكلام غيرهم ،
 وكان المأمون معروفًا بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجة والطلاوة^(٣) ،
 وقد روى له ابن قتيبة ثلاث خطب^(٤) : أولاهما في يوم الجمعة وثانيتهما في يوم
 الأضحى وثالثتها في عيد الفطر وفيها يقول :

« اتَّقُوا الله عبادَ الله وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم ولم يختصر
 الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عشرة
 ولا تُحظَرُ قبله توبة ، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده إلا
 فوقه .. ولا يعين على القبر وظلمته وضيقه ووحشته وهول مَطْلَعه ومسألة ملائكته
 إلا العمل الصالح الذي أمر الله به فمن زلَّتْ عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته
 وفاته استقالته ودعا من الرجعة إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفدية ما لا
 يُقبَلُ منه » .

ومعروف أن الولاية كانوا يجمعون بين الولاية والصلاة ، ويظهر أنهم أخذوا
 مع مر الزمن يخطبون بكلام غيرهم ، وقد يندبون من يقوم مقامهم في الصلاة
 والخطابة ، ويذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسي والى البصرة والكوفة لعهد
 المنصور والمهدي أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لا يغيرها ، وهي خطبة قصيرة^(٥) .

ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على اسان الولاة والخلفاء
 فإنها أينعت في بيئة الوعاظ والنسك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة
 والكوفة ، وكانوا أخلاطا من الزهاد والفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وكان بعضهم
 يلمّ بمجالس الخلفاء لوعظهم ، وأحيانا كانوا يستقدمونهم ، فيعظونهم حتى يبكونهم ،

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٥٣ وما بعدها .

(٥) انظرها في البيان والتبيين ٢/١٢٩ .

(١) الفرج بعد الشدة للتونسي ٢/٢٠ .

(٢) أغاني (طبعة السامي) ١٨/٨٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٩١ ، ١١٥ .

بما يوقعون في نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم ، وهم في تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصي والسيئات . ومن كبارهم الذين عُرِفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدي الخلفاء ثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزلي الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ الميمني وابن السماك واعظ الرشيد ، ويُرَوَى عن أولهم أنه دخل على المنصور يوماً فقال له : عِظْتَنِي ، فقال (١) :

« إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاستر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده . فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع (٢) : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : إن هذا صحبك عشرين سنة لم يرك عليه أن ينصحك يوماً واحداً ، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ ! قد قلت لك : خاتمي في يدك فتعال وأصحابك (٣) ، فاكفني . قال عمرو : ادعنا بعدك لك تسخُ أنفسنا بعونك . يبابك ألف مظلمة ارددُ منها شيئاً نعلم أنك صادق . »

وكان صالح بن عبد الجليل ناسكاً مفوهاً ، وكان يلمُّ بمجالس المهدي ويعظه ، ويظيل في وعظه له حتى يبكيه وحتى يذرف الدمع مدارراً ، ويُرَوَى أنه دخل عليه يوماً فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال له تكلم ، ومن بعض كلامه حينئذ (٤) :

« كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشدُّ منه عذاباً مَنْ أقبل إليه العلم وأدبر عنه ، ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله وقصّر بها ، فاقبَلْ ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل لا قبول سمعة ورياء فإنه لا يعدمك منا إعلامٌ لما تجهل أو مواطأةٌ على ما تعلم أو تذكيرٌ من غفلة ، فقد وطن الله عز وجل نبيه عليه السلام على نزولها تعزية عمات وتحصيناً من الهادي ودلالة على المسخرج فقال : (وإما ينزغَنَّك من الشيطان نَزْغٌ

(٣) يريد أصحابه من المعتزلة الناسكين .

(٤) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ .

(١) عيون الأخبار ٢/٣٣٧ .

(٢) حاجب المنصور .

فاسْتَعِيدُ بِاللَّهِ فَأُطْلِعُ اللَّهَ عَلَى قَلْبِكَ بِمَا يُسَوِّرُهُ مِنْ إِثَارِ الْحَقِّ وَمِنَابِذَةِ الْأَهْوَاءِ ،
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وكان ابن السماك محدثاً وواعظاً مؤثراً ، رَوَى عَنْهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ ،
وَلَهُ كَلَامٌ وَمَوَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ تَدُورُ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ وَالْأَدَبِ ، وَمِمَّا يُؤَثِّرُ
عَنْهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : عِظْنِي ، فَقَالَ (١) :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : اتَّقِ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ وَاقِفٌ غَدًا
بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ رَبِّكَ ثُمَّ مَصْرُوفٌ إِلَى إِحْدَى مَنزِلَتَيْنِ لَا ثَالِثَةَ لهُمَا جَنَّةٌ أَوْ نَارٌ . فَبَكَى
هَرُونَ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ (٢) . »

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائماً من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول
الكريم وأقوال أصحابه ومن سبقهم إلى الوعظ في العصر الأموي من مثل الحسن
البرصري ، وداًئماً تبهرنا مواعظهم لما أشاعوا فيها من إيمان شديد بالدين وثقة
وطيدة بأن ما عند الله خير وأبقى مما في أيدي الناس من متاع الحياة الزائل .

وكثير من الوعاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الديني وتفسير بعض
آي القرآن ؛ وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام . وكثر هؤلاء القصاص
الوعاظ في عصر بني أمية مما جعل الجاحظ يعقد لهم فصلاً (٣) طريفاً في كتابه
البيان والتبيين ، وفيه يقول عن قُصَّاصِ العصر العباسي الأول :

« وَمِنَ الْقُصَّاصِ مُوسَى بْنُ سَيَّارِ الْأُسُوَارِيِّ وَكَانَ مِنْ أَعَاجِيبِ الدُّنْيَا ،
كَانَتْ فَصَاحَتُهُ بِالْفَارْسِيَّةِ فِي وَزْنِ فَصَاحَتِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَكَانَ يَجْلِسُ فِي مَجْلِسِهِ
الْمَشْهُورِ بِهِ ، فَتَقَعِدُ الْعَرَبُ عَنْ يَمِينِهِ وَالْقُرْسُ عَنْ يَسَارِهِ ، فَيَقْرَأُ آيَةَ مِنْ كِتَابِ
اللَّهِ وَيَفْسَرُهَا لِلْعَرَبِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ يَحْوِلُ وَجْهَهُ إِلَى الْفَرَسِ فَيَفْسَرُهَا لِمَنْ بِالْفَارْسِيَّةِ ،
فَلَا يُدْرِي بِأَيِّ لِسَانٍ هُوَ أَبِينٌ . وَاللِّغَتَانِ إِذَا التَّقَتَا فِي اللِّسَانِ الْوَاحِدِ أَدْخَلَتْ
كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا الضَّمِيمَ عَلَى صَاحِبَتِهَا إِلَّا مَا ذَكَرْنَا مِنْ لِسَانِ مُوسَى بْنِ سَيَّارِ
الْأُسُوَارِيِّ . وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَقْرَأَ فِي مِحْرَابٍ مِنْ
مُوسَى بْنِ سَيَّارٍ ثُمَّ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ ثُمَّ أَسْعَدَ ثُمَّ يُونُسَ النَّحْوِيَّ ثُمَّ الْمُعَلِّيَّ . ثُمَّ

(٣) انظر البيان والتبيين ١/٣٦٧ وما بعدها .

(١) تاريخ الطبري ٦/٥٣٨ .

(٢) اخضلت : بللتها الدموع .

قصّ في مسجده أبو على الأسواريّ وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة ، فاختتم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسر آية واحدة في عدة أسابيع . وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك من الأحاديث كثيراً ، وكان يقصّ في فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . ثم قصّ بعده القاسم بن يحيى ، وهو أبو العباس الضرير ، لم يُدرَك في القصص مثله . وكان يقصّ معهما وبعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . فأما صالح المرّي فكان يُكسّي أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس . وسمعه سفيان بن حبيب (أحد كبار المحدثين) فقال ليس هذا قاصّاً ، هذا نذير .

ووقف الجاحظ في بيانه مراراً عند صالح المرّي حاكياً بعض كلامه ، أو بعض ما كان يردّه من شعر في قصصه ، من ذلك قوله عنه : « كان صالح المرّي القاص العابد البليغ كثيراً ما يُنشد في قصصه وفي مواعظه هذا البيت الذي أُنشدناه في غير هذا الموضع :

فبات يُروى أصولَ الفَسِيلِ فعاش الفَسِيلُ ومات الرَجُلُ^(١)
ومن ذلك ما يُذكر من أنه مات ابنٌ لعبيد الله بن الحسن قاضي البصرة . فعزّاه صالح المرّي ، فقال : « إن كانت مصيبتك في ابنك أحدثت لك عظة في نفسك ، فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن لم تكن أحدثت لك عظة في نفسك فصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ابنك^(٢) . » وعزّى رجلاً في أخيه فقال : « إن تكن مصيبتك في أخيك أحدثت لك خَشْيَةً فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جَزَعاً فبئس المصيبة مصيبتك^(٣) . » ويذكر الجاحظ أنه كان كثيراً ما يردد في مجلسه : « أعوذ بك من الخسْفِ والمسْخِ والرَّجْفَةِ والزَّلْزَلَةِ والصاعقة والريح المهلكة ، وأعوذ بك من جهنم البلاء ومن شماتة الأعداء . » وكان يقول : أعوذ بك من التَّعَبِ والتَّعْذُرِ والخِيبَةِ وسوء المنقلب . اللهم من أرادني بخير فيسرّ لي خيره ، ومن أرادني بشر فأكفني شرّه . اللهم إني

(٢) البيان والتبيين ١٧١/٣ .

(١) البيان والتبيين ١١٩/١ .

(٢) البيان والتبيين ٨٢/٢ .

أسألك خَيْصَب الرَّحْل^(١) ، وصَلاح الأهل^(٢) » . وروى الجاحظ من بعض وعظه في كتابه الحيوان قوله : « تَغْدُو الطير خِيْمَاصًا وتروح شِبَاعًا ، واثقة بأن لها في كل غدوة رزقا لا يفوتها . والذي نفسى بيده أن لو غدوتهم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرُحِّتم وبطونكم أبْطَنُ من بطون الحوامل^(٣) » .

وواضح مما روينا من كلام صالح المرثى وغيره من القمصاص والوعاظ أنهم ارتقوا بصناعة النثر في المعاني التي كانوا يرددونها رقيا بعيداً ، إذ شعَبوا وفرَّعوا في تلك المعاني طويلاً ، واستنبطوا فيها كثيراً من الدقائق التي تمسُّ القلوب والعقول . وأضافوا إلى ذلك عناية واسعة بأساليبهم ، وهى عناية تقوم على الدقة في اختيار اللفظ والإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة . وأدأهم ذلك في بعض الأحيان إلى استخدام السجع ، بل كان منهم من أكثر من استخدامه مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى وفيه يقول الجاحظ كان سجعاً عا في قصصه^(٤) ، وكان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصاً مجيداً^(٥) ، ويروى من وعظه : « سئل الأرض فقل من شقَّ أنهارك وغرس أشجارك ، فإن لم تُجِبْكَ حواراً ، أجابتك اعتباراً^(٦) » ويقول الجاحظ : « كان يتلو الآية التي فيها ذكر الجنة والنار والموت والحشر^(٧) » ثم يفيض في الوعظ . وكان ابنه عبد الصمد قاصاً مثله ، وكان أغزر منه وأبين وأعجب وأخطب^(٨) ، وقيل له : « لِمَ تؤثر السجع على المنشور وتلزم نفسك القوافي (أى روى الأسجاع) وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى أو كنت لا أمل فيه إلا سماع المشاهد لقلَّ خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفمَّكت^(٩) » .

(٦) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
 (٧) البيان والتبيين ١/٢٩١ .
 (٨) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
 (٩) البيان والتبيين ١/٢٨٧ .

(١) الرحل هنا : المسكن والبيت .
 (٢) البيان والتبيين ٣/٢٨٨ .
 (٣) الحيوان ٧/٦٢ .
 (٤) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .
 (٥) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .

المناظرات

قلما عُنِيَ مؤرّخو الأدب العباسي بالحديث عن المناظرات التي احتدمت بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر مع أنها كانت من أهمّ الفنون الثرية وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم ، لسبب بسيط وهو أنها كثيراً ما كانت تنعقد في المساجد ، وقد مرّ بنا أن مجالس البرامكة والمأمون كانت تكتظ بهذه المناظرات ، وأنه كان وراء مجالسهما مجالس صغرى كثيرة ، يجتمع فيها المتناظرون من الشيعة والزنادقة والمتكلمين ، ويتحاورون في المسائل العقيدية وغير العقيدية ، وقد يخوضون في بعض المسائل الفلسفية ، على نحو ما كانت تخوض مجالس البرامكة ، وبالمثل كان يتناظر الفقهاء ، ومناظرة الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني مشهورة .

والمعتزلة أهمّ طوائف المتناظرين حينئذ ، فقد وقفوا أنفسهم على جدال طوائف المتكلمين من مخالفيهم في أصولهم الخمسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع وجدال من كانوا يعتقدون التشيع الغالى مثل شيطان الطاق وهشام بن الحكم وجادلوا جدالاً عنيفاً أرباب الملل السماوية والنحل غير السماوية من الدهرية والمناوية ، ومن أشهرهم في الجدال والمناظرة أبو الهذيل العلاف المتوفى في حوالي سنة ٢٣٠ للهجرة ، وفيه يقول ابن خلكان : « كان حسن الجدال قوى الحجّة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات » . وروى الخطيب^(١) البغدادي والمرتضى^(٢) في أماليه وبعض المراجع القديمة طائفة من مناظراته . من ذلك مناظرته في حدائته ليهودى ورّد البصرة ، وتعرض لتكلمها يقول لهم ألا تقرّون بنبوّة موسى عليه السلام ؟ حتى إذا اعترفوا بها قال : نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجتمع على ما تدعّونه . فتقدم إليه ، وقال له : أسألك أم تسألنى ؟ فقال له اليهودى : بل أسألك فقال : ذاك إليك ، فقال اليهودى : أتعرف بأن موسى نبيّ صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك ، فقال له أبو الهذيل : إن كان موسى الذى تسألنى عنه هو الذى بشرّ بنبيّ

(١) تاريخ بغداد ٣/٣٦٦ وما بعدها .

(٢) أمالي المرتضى ١/١٧٨ وما بعدها .

عليه السلام وشهد بنبوته وصدقته فهو نبي صادق ، وإن كان غير من وصفتُ
فذلك شيطان لا أعترف بنبوته . فورد على اليهودى ما لم يكن في حسابانه . ولم
يلبث أن سأل أبا الهذيل : أتقول إن التوراة حق ؟ فقال : هذه المسألة تجرى
مجرى الأولى ، إن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن البشارة
بنبي عليه السلام فتلك حق ، وإن لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقرُّ بها .
فبهت اليهودى وأفحم ولم يدر ما يقول . وناظر يوماً مجوسياً فسأله ما تقول فى
النار ؟ قال : بنت الله ، قال فالبقر ؟ قال : ملائكة الله قصص أجنحتها
وحطَّها إلى الأرض يُحَرِّثُ عليها ، قال : فالماء ؟ قال : نور الله ، قال أبو الهذيل
فما الجوع والعطش ؟ قال : فقتر الشيطان وفاقته ، قال أبو الهذيل : فمن يحمل
الأرض ؟ قال : بهمن الملك . حينئذ قال أبو الهذيل : فما فى الدنيا شر من
المجوس أخذوا ملائكة الله فذبجوها ، ثم غسلوها بنور الله ثم شَوَّوْها بينت الله ،
ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلخوها على رأس بهمن الملك أعز ملائكة
الله . فانقطع المجوسى ونجى مما لزمه . وقال له المعتدل بن غيلان يوماً إن فى
نفسى شيئاً من القول بالاستطاعة وأن الإنسان حرٌّ حرية مطلقة فى أعماله فبيِّن
لى ما يذهب الريب عنى ، فقال له : خبرنى عن قول الله تعالى : (وسيحلفون
بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) هل يخلو
من أن يكون أكذبهم لأنهم مستطيعون الخروج وهم تاركون له ، فلاستطاعة
الخروج فيهم وليسوا يخرجون قال (إنهم لكاذبون) أى هم يستطيعون الخروج
وهم يكذبون فيقولون : لسنا نستطيع ، ولو استطعنا لخرجنا ، فأكذبهم الله على
هذا الوجه . أو يكون على وجه آخر يقول : (إنهم لكاذبون) أى إن أعطيتهم
الاستطاعة لم يخرجوا ، فتكون معهم الاستطاعة على الخروج ولا يخرجون .
وعلى كل حال قد كانت الاستطاعة على الخروج ثابتة لهم . ولا يعقل
للآية معنى ثالث غير الوجهين اللذين وصفنا . وبذلك أقام الحججة القاطعة
على الاستطاعة من لفظ القرآن الكريم ، حتى ينقض ما يستشهد به أصحاب
الجبر وتعطيل إرادة الإنسان وحرية من بعض آيه التى لا تعطيهم الدلالة البيِّنة
الملزمة . وكان يتعمق ببعض مناظراته فى مسائل فلسفية كقوله إن حركات أهل

الجنة والنار لا تبقى بل تنقلب إلى سكن دائم ، تجتمع فيه اللذات لأهل الجنة ويجمع العذاب لأهل النار ، إلى غير ذلك من الآراء المبسوطة في الملل والنحل للشهرستاني وفي مقالات الإسلاميين للأشعري .

وكان ابن أخته النظام لا يقل عنه قوة في الجدل والإقناع وإفحام الخصوم ، ومرّبنا في غير هذا الموضوع كيف أفحم أبا شَمِيرَ الجَبَرِيّ المَرَجِيّ وقطعه بالبراهين الساطعة ، حتى زحف إليه وأمسك بيديه ليسكت . ويقول ابن النديم إنه ما زال يناظر الحسين النجار في الجبر وحرية الإرادة ، حتى انصرف محمومًا مغمومًا وكان ذلك سبب علته التي مات فيها^(١) . وهو يُعَدُّ أكبر من جادلوا الدهرية والماتوية وغيرهما من أصحاب النحل غير الإسلامية لعصره ، حتى ليقول الجاحظ على نحو ما مرينا في ترجمتنا له بين الشعراء : « لولا مكان المتكلمين هلكت العوامُ من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل واولا أصحاب إبراهيم (النظام) وإبراهيم هلكت العوام من المعتزلة ، فإني أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلًا وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة^(٢) » . وحكى الجاحظ كثيراً من جداله وروده على الدهرية والمنشائية والديبصانية ، وفي الجزء الخامس من كتاب الحيوان مادة من ذلك كثيرة ، نراه فيها يرد على من يقولون بأن أصل العالم ضياء وظلام وأن الحرارة والبرودة واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هي نتائج على قدر امتزاجها ، ويلاحظ أنهم يقفون عند حاسّة اللمس فقط دون غيرها من الحواس . ويبحث مباحث واسعة في النار وأنها حر وضياء وأن الضياء ليس بلون لأنه إذا سقط على الألوان المختلفة كان عمله فيها واحداً . ويفيض في ردود كثيرة على المجوس ، واحتفظ أبو الحسين الخياط هو الآخر بكثير من هذه الردود ، من ذلك قول المنانية بالنور والظلمة وأن النور هو مصدر كل خير والظلمة مصدر كل شر ، فالصدق خير لأنه من النور والكذب شر لأنه من الظلمة ، مما جعله يقول لهم : « حدثونا عن إنسان قال قولاً كذب فيه من الكاذب ؟ قالوا الظلمة ، قال : فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب ، وقال : قد كذبت وقد أسأت ، من القائل : قد كذبت ؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون ، فقال لهم إبراهيم : إن زعمتم أن النور هو

(٢) الحيوان ٤/٢٠٦ .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٤ .

القائل : قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله والكذب شر ، فقد كان من النور شر وهو هدم قولكم ، وإن قلتم إن الظلمة قالت : قد كذبت وأسأت فقد صدقت ، والصدق خير ، فقد كان من الظلمة صدق وكذب ، وهما عندكم مختلفان ، فقد كان من الشيء الواحد شيان مختلفان : خير وشر على حكمكم ، وهذا هدم قولكم بقدم الاثنين^(١) « أى الخير والشر وإلهيما اللذين يؤمنون بهما . وعلى نحو ما كان يناظر المنانية ويقطعهم كان يناظر الدهرية القائلين بالدهر وخلوده وأن حركات الأفلاك لا تنتهى ، ويفحمهم بمنطقه وقوة نسجه للأدلة ، من ذلك أنه تعرّض لهم يوماً يجادلهم فيما يزعمون من عدم التنهاى فى حركات الأفلاك ، وكان مما قاله لهم : « ليس تخلو الكواكب من أن تكون متساوية الحركة ، لا فضل لبعضها على بعض فى السبر والقطع أو بعضها أسرع قطعاً وسيراً من بعض ، فإن كانت متساوية القطع فقطع بعضها أقل من قطع جميعها ، وإذا أضيف قطع بعضها إلى قطع البعض الآخر كان قطع الجميع أكثر من قطع الواحد ، وإن كان بعضها أسرع من بعض قطعاً ، فقد دخلته القلة والكثرة وما دخلته القلة والكثرة متناه^(٢) » وهو تناه يدل على حدوث الحركة . وكان يكثر من مناظرة خاله أبى الهذيل ويعاود عليه بقوة حججه ، مما جعله يراوغه كثيراً ويعتلُّ عليه ، حتى قال له بعض مستمعيهما : « إنك إذا راوغت واعتلت وأنت تكلم النظام فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه ، فقال : خمسون شكاً خير من يقين واحد^(٣) » . ومر بنا فى غير هذا الموضوع بعض آرائه الفلسفية وفى الحق أنه هو وخاله وغيرهما من المعتزلة غمسوا آراءهم وتفكيرهم فى الفلسفة غمساً . ونراه يحوّل كل شىء إلى المناظرة ، فهو يناظر فى الآراء العقيدية وفى الآراء الفاسفية مما ذكرناه فى ترجمته السابقة كما يناظر فى المسائل الطبيعية وفى الحيوان . ومناظرته لمعبد فى مساوىء الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره مشهورة وقد شغلت نحو مجلد ونصف من كتاب الحيوان للجاحظ ، إذ استقصيا جميع الجوانب المتصلة بذلك استقصاء يدل على مدى الرقى الفكرى الذى رقيه العقل العربى فى العصر

(٢) انظر كتاب الانتصار ص ٣٥ .

(٣) حيوان ٦٠/٣ .

(١) كتاب الانتصار لأبى الحسين الخياط

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٠ .

العباسي . وهى وما يماثلها لم تكن تُراد لنفسها وإنما كانت تراد للبرهنة على عجائب تدبير الله جل جلاله فى خَلْقِهِ وما أودعه فيه من ذخائر الحكمة ، كما كانت تُرَادُ للفرق بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين لا فى بحث عجائب الكون فى الحيوان فقط بل فى بحث كل صور الوجود أيضا وما يتصل بذلك من الآراء الفلسفية العميقة ، ومن أجل ذلك آثر المعتزلةُ هذا الجدالَ العَقْلِيَّ على النسك والعبادة وجعلوه فوق الحج والجهاد^(١) .

وفى الحق أنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرةِ العقلِ العربىِّ إلى أبعد غاية ، فقد أمدُّوه بسيل من دقائق المعانى وخفيات البراهين ، وجعلوه عقلا جدلا ما يزال ينقب عن خبيثات الأفكار ، وما يزال يجلب من أعماق الأعماق دُرَرها الباهرة . وقد تعاوروا على الأشياء المشهورة يصححونها ويسدونها ، وتعاور معهم كثير من معاصريهم الذين مضوا يتقنون على شاكلتهم الحوار فى كل شىء . ومن طريف ما يَصوِّرُ ذلك أن نجد الجاحظ يذكر أن شخصا يسمى جعفر بن سعيد كان يفضل الديك على الطاووس ، كأنه يريد أن يعكس ما شاع عند الناس من جمال الطاووس ، ويسوق الجاحظ ما كان يقوله فى ذلك على هذا النمط^(٢) :

« كان جعفر بن سعيد يزعم أن الديك أحمدُ من الطاووس وأنه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلعه^(٣) إذا مشى سليم من مقابح الطاووس ومن مَرُوقه^(٤) وقبح صورته ! ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجله ونذالة مَرَاتِهِ . وزعم أنه أو ملك طاووسا لألبس رجله خُفًّا . وكان يقول : وإنما يُفخَّرُ له بالتلاوين وبذلك التعاريج والتهاويل التى لألوان ريشه ، وربما رأيت الديك النبْطى وفيه شبيه بذلك إلا أن الديك أجمل لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف وأسلم من العيوب من الطاووس . وكان يقول : ولو كان الطاووس أحسن من الديك النبْطى فى تلاوين ريشه فقط لكان فضل الديك عليه بفضل القَدِّ والخِرْطُ وبفضل حسن الانتصاب وجودة الإشراف أكثر من مقدار فضل حسن ألوانه على ألوان الديك وألوان السلم من العيوب فى العين أجمل لا اعتراض تلك الحُصَالِ القبيحة على حُسْنِ الطاووس

(٣) التقلع : التحدر فى المشى .

(٤) الموق : الحمق .

(١) حيوان ١/٢١٦ .

(٢) حيوان ٢/٢٤٣ .

في عين الناظر إليه . وأول منازل الحمد السلامة من الدم . . والعامّة لا تبصر الجمال ،
ولفرسٍ رائع كريم أحسن من كل طاووس في الأرض ، وكذلك الرجل والمرأة . وإنما
ذهبوا من حسنة إلى حسن ريشه فقط ، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصّب كحسن
البازي وانتصابه ، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشيات والهَيْئَة والرأس
والوجه الذي فيه . وكان جعفر يقول : لما لم يكن في الطاووس إلا حسنة في ألوانه
ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحم ذلك ويجاذبه وينازعه ويسْغُل عنه ذكرو تبين
وظهر . ونحصال الديك كثيرة وهي متكافئة في الجمال .

وواضح أن هذه قدرة بارعة في الجدل وفي تأليف الحجج والأدلة ، وهي تدل
على ما أصاب العقل العربي حينئذ من رقى جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن
استقصاء وأدقه ، استقصاء يحرص فيه المتكلم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون
التعمق والتدقيق وكان يصحب ذلك بكثير من الظرف ومن السفسطة التي تدل على
ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه ما حكاه
الجاحظ في فاتحة كتابه البخلاء عن مذهب مَنْ يسمّى باسم الجَهَّجَاه « في
تحسين الكذب في مواضع وفي تقييح الصدق في مواضع وفي إلحاق الكذب بمرتبة
الصدق وفي حطّ الصدق إلى موضع الكذب وأن الناس يظلمون الكذب بتناسي
مناقبه وتذكّر مثالبه ويجابون الصدق بتذكّر منافعه وبتناسي مضاره وأنهم لو وازنوا
بين مرافقهما وعدّلوا بين خصالهما لما فرّقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوهما بهذه
العيون » . ويتلو الجاحظ هذا المذهب بمذهب من يسمّى باسم صَحَّصَح « في
تفضيل النسيان على كثير من الذكر وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة
وأن عيش البهائم أحسن موقعا في النفوس من عيش العقلاء وأنتك لو أسمنت بهيمة
ورجلا ذا مروءة أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غباء وغفلة لكان الشحم إلى
البهيمة أسرع وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، ولأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام
ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن ، فلذلك البهيمة تَقْنُو شحما في الأيام اليسيرة ،
ولا تجد ذلك لدى الهمة البعيدة ، ومتوقّع البلاء في البلاء وإن سلم منه ، والغافل
في الرجاء إلى أن يدركه البلاء » .

وقد يقال إن هذا التقييح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة عُرِف

في الأدب الفهلوي القديم ، وأن العباسيين تأثروا في هذا الاتجاه بما كان منه في هذا الأدب ، ونحن لا ننفي ذلك ، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا في هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين وما داخلها من سفسطة أحيانا ، بحيث أصبح هذا التحسين والتقبيح نمطا من أنماط التفكير العباسي ، وبحيث عمّ في كل شيء ، مما عمياً فيما بعد هذا العصر لظهور كتب المحاسن والمساوي . ونضيف أن المتكلمين تأثروا أيضاً في مناظراتهم بما كان في التراث الفلسفي اليوناني من جدال وحوار ، وبخاصة في المسائل الفلسفية الخالصة ، ومعروف أن أفلاطون كان يدير كثيراً من رسائله على الحوار والجدل بين نَسَمَرٍ من الفلاسفة ، على نحو ما هو معروف في رسالته أو كتابه الذي سماه المأدبة وفيه جلب سقراط وبعض المتفلسفة ليتحاووا في عاطفة الحب ، ومرّبنا في غير هذا الموضوع أن يجي البرمكي دعا من كانوا يتناظرون بمجالسه في المسائل الفلسفية والكلامية إلى الحديث عن العشق ، وكان حديثاً طويلاً تبادل هؤلاء المتناظرون آراءهم فيه ، وأكبر الظن أنهم سمعوا بمأدبة أفلاطون إن لم يكن بعضهم قد اطلع عليها مترجمةً ، ولم يُسَمَلْ لنا جميع هذا الحديث الطريف ، إنما نُقِلَ بعض ما تحدّث به مَنْ شاركوا في هذه المحاورة البديعة ، نَقَلَهُ المسعودي في كتابه مروج الذهب على هذه الشاكلة^(١) :

« قال علي بن ميثم (المتكلم الشيعي) : العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ورقة الطبيعة وصفاء الجوهر ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمي وهو خارجي المذهب : العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبيعيين وامتزاج الشكليين ، وله نفوذ في القلب كنفوذ صَيِّب المزن في خلكل الرَّمْل تنقاد له العقول وتستكين له الآراء .

وقال أبو الهذيل العلاف المعتزلي : العشق يختم على النواظر ويطبّع على الأفئدة مرتقى في الأجساد ومسرعة في الأكباد ، وصاحبه منصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النواذب . وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون في الطبع وطلاوة

توجد في الشائل وصاحبه جواد لا يصغو (يميل) إلى داعية المنع ولا يسبح به (بصرفه) نازع العدل.

وقال إبراهيم النظام بن يسار المعتزلي : العشق أرق من الشراب ، وأدب من الشباب ، وهو من طينة عطرة عسجت في إناء من الحلى ، حلو المجنبي ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد صيلاً قاتلاً ، وفساداً معضلاً ، لا يُطْمَعُ في إصلاحه . له سحابة غزيرة على القلوب ، فتعشّب شغفاً وتُسْمِرُ كلفاً . وصريره دائم اللوعة ضيق المتنفّس طويل الفكر إذا جسّته الليل أرق وإذا أوضحه النهار قاق ، صَوْمُهُ البَلْوَى ، وإفطاره الشكوى .

ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم ، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيها مرّة دليل عليه .

وكنا نتمنى لو أن المسعودى أورد كل ما قاله هؤلاء المتحاورون إذن لورثنا عن العباسيين مادية في العشق تقابل مادية أفلاطون . والذي لا شك فيه - كما أسلفنا - أن هذه المادية كانت تحت أعين معاصريهم كما كانت تحت بصر من جاءوا بعدهم مثل المسعودى ، وأن الشعراء استمدوا منها كثيراً من معانيهم في العشق والغزل . ومضى المسعودى يذكر بعض ما أثير عن الفلاسفة والأطباء في العشق ، مما يقطع بأن العباسيين إن لم يعرفوا مادية أفلاطون فقد سقطت إليهم آراء يونانية مختلفة في الحب والهوى .

وواضح ما في هذا الحوار عن العشق من دقة في المعاني ومن حسن سبك وأداء ، حتى ليُعنى بعض المتحاورين بأن يكون كلامه مسجوعاً ، مما يدل دلالة بينة على أن المتناظرين كانوا لا يزاون يتعهدون كلامهم ويصوغونه صياغة باهرة ، وبذلك أعدوا لتطور النثر تطوراً واسعاً في مضامينه الجديدة التي لم يكن للعربية بها عهد وفي أساليبه وما شفّعوا به من حسن السبك وجمال الصياغة والأداء .

وليس ذلك فحسب كل ما قدمه فن المناظرة للنثر في هذا العصر ، فقد جعل المتكلمون والمتناظرون وفي مقدمتهم المعتزلة يبحثون في بلاغة القول ويكثرون من ملاحظاتهم في هذا الاتجاه على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع ، مما أعدّ لوضع أصول البلاغة العربية .

الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والترقيات

تحدثنا في الفصل الأول عن تعقد الدواوين في هذا العصر وتنوعها ، فدواوين للخراج ودواوين للنفقات ودواوين للجيش ودواوين للحروب ودواوين للرسائل ودواوين للخاتم ودواوين لشرق الدولة ودواوين لغربها ، وأكل ولاية ديوان ، وفوق هذه الدواوين ما يسمى ديوان الزمام الذى ينظر في ضبط كل ديوان على حدة . ويجانب هذه الدواوين العامة في بغداد دواوين في الولايات للخراج والرسائل ودواوين أخرى لأولياء العهد وللأمراء ولوزراء وكبار القواد ، ومن لم يتخذ من هؤلاء ديوانا كبيرا كان له كاتب يكتب عنه وينظر في تدبير أمواله ونفقاته وضياعه ، وحتى نساء الخلفاء كن يتخذن الكتاب ، وكذلك كان يتخذهم بعض القضاة والعلماء للكتابة عنهم .

وبذلك نشطت الكتابة في هذا العصر نشاطاً واسعاً ، فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم في ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة . وكان من يظنهم منهم مهارة في دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رئاسة الديوان الذى يعمل فيه . وقد تُقبّل عليه الدنيا فيصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشؤونها ، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البجراح البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة وقد ولى مصر في عصر الهادى والأمين ، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس ومثل عمر بن مهران كاتب الخيزران أم الرشيد وقد ولاه مصر في بعض السنين . وكثير من الولاة والقواد كانوا يحسنون الكتابة إلى أبعد غاية مثل جعفر بن محمد بن الأشعث وإلى خراسان الرشيد ومثل طاهر بن الحسين قائد المأمون واليه على خراسان وابنه عبدالله بن طاهر وإلى مصر والشام والجزيرة ثم وإلى خراسان ومثل أبى دلف العجلي قائد المأمون المشهور .

وعلى هذا النحو كانت الكتابة في هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب ، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يسلّمى الإكبار

والإعجاب في كل مكان ، وقد أخذ يسيل لها لعاب كل من أحسَّ في نفسه قدرة عليها ، حتى يحظَى بما يكفل له العيش فضلاً عما قد يصيب من رَغْمٍ ونعيم ، ومن أجل ذلك كثر الوافدون على أبواب الدواوين وخاصة من الناشئة ذوى المطامح البعيدة ، وكانوا يعرضون أنفسهم ، فيُسْتَحْتَنُونَ امتحاناً عسيراً ، تُبْصَحَتْ فيه مهارتهم الأدبية والعقلية ، ومن جاز الامتحان أمرهم رؤساء الدواوين بملازمتهم ، ثم ضمهم إلى دواوينهم وترقوا بهم من حال إلى حال ، على قدر مهاراتهم حتى بلغوا بهم المنزلة التي يستحقونها ، وربما ألحقهم ببعض الولاة والقواد أو جعلوا لهم التصرف في بعض الأعمال أو في بعض دواوين الخراج .

ولم يكن نجاح الكاتب الناشئ هينا ، فقد كان لا بدَّ له من إحسان صناعة الكتابة ، وهو إحسان جعله يتوفر على مادتها اللغوية والأسلوبية ، حتى يتقنها الإتيان المنشود من حيث الوضوح والجمال الفني ، أما الوضوح فلأنه كان يكتب غالباً إلى الرعية ولا بد للرعية أن تفهم عنه ، وأما من حيث الجمال الفني فلأنه كان يكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد ، ولا بد أن يروعهم بيانه وبلاغته ، وقد توقَّفَ الجاحظ مراراً في كتاباته يُشيدُ ببراعتهم في القول وعذوبة آدائهم وطلاوة صياغاتهم من مثل قوله : «إنهم لا يتقنون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني (١) » .

وكان لا بد لهم بجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقنوا طائفة من المعارف وفي مقدمتها علوم اللسان العربي وعلوم الفقه ، وكان العلم الأخير ضرورياً لهم ، لأنهم كانوا يكتبون في شئون الخراج وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤدوه من أموال ، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان . وكانوا يلمون بكل علم مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم . ولم يكن ذلك كل ثقافة الكاتب ، فقد مضى يقرأ كل ما تُرجم من الحكمة اليونانية وما أثر

ما تبادلته الإسكندر المقدوني وأرسطو من رسائل وما نُقل عن الفلاسفة اليونانيين من أقوال وكذلك ما نقل عن الهنود من حكم وقصص يتصل بتدبير الملك وخاصة كتاب كليلة ودمنة . ومرّ بنا مدى إعجاب يحيى البرمكي بهذا الكتاب مما جعله يطلب إلى أبان بن عبد الحميد أن ينقله شعراً حتى يسهل حفظه ، وكان قد نقله ابن المقفع قبل ذلك نثراً ، ومرّ بنا في غير هذا الموضوع أنه نقل كثيراً من سير ملوك الفرس وأنظمتهم في الملك وتدبيرهم في السياسة والحكم وأن نقله « خُدای نامه » في سير ملوكهم و« آیین نامه » في أنظمتهم و« التاج » في سيرة كسرى أنوشروان و« الأدب الكبير » و« اليتيمة » و« الصحابة » . وأكبّ الكاتب العباسي على هذه الكتب وغيرها مما عرضنا له في الفصل الثالث كأمثال بزرجمهر وكتاب « جاويدان خرد » في الآداب والأخلاق و« عهد أردشير بن بابك إلى ابنه سابور » .

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت من أهم المؤثرات في رقى الكتابة الديوانية وتطورها ، وحقاً أن هذا التأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب ولكنه لم يبلغ أشده إلا في هذا العصر إذ اتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة ، مما سالت مادته الغزيرة في كتابات الكاتب العباسي ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه الوزراء والكتاب بتمهيد واسع عرّض فيه لتدوين الفرس للدواوين ونظمها المختلفة ، متحدثاً في ثنايا ذلك عن كتب الأكاسرة إلى عمالهم ومقتبساً فصولاً عن سابور إلى ابنه ومن كلام أردشير وكلام أبرويز إلى وزرائه ووصيته لابنه شيرويه ووصية أردشير لوزرائه واستشارة سابور لوزيرين ناهيين . وعرّض الجهشيارى لبعض رسائل أرسطو للإسكندر ، وبعض وصايا الهند وحكمهم . وفي ذلك كله الدلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ به الكاتب العباسي نفسه من ثقافة سياسية ، وخاصة ما كتبه الفرس في وصاياهم وعهودهم . وكان لابد له من إلمام واسع بأخبار العرب وأشعارهم وكل ما يتصل بهم وبخلفائهم ، وكان أحياناً يحسن نظم الشعر ورفضه ، ويستشهد به في رسائله وكلامه ، وكذلك كان يحفظ القرآن الكريم ويقتبس منه أحياناً ، وأحياناً يحاول مجازاة

أساليبه وما يجرى فيها من حسن التأليف والثام الكلم وجودة المقاطع وحلاوة البيان وعذوبته . وحتى الخطّ كان لا بد للكاتب العباسي من إجادته .

ومنّ ينظر نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والحصب والجدب ، وعهود الخلفاء لأبنائهم ، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم . وأيضاً فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التي كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر مما سنعرض له في الرسائل الإخوانية التي تصور عواطف الأفراد ، وقد تفننوا حينئذ طويلاً في التحميدات التي تُصدّر بها الرسائل ، وتُنسب إلى الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدىء مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم^(١) . وفي رواية ثانية أن يحيى البرمكي وزيره أول من زاد في الرسائل : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وأنه أنشأ في ذلك كتاباً ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام^(٢) .

ونحن نقف سد طائفة من الكتاب النابيين مرتبين لهم على عهود الخلفاء وأول كاتب لمع اسمه في مطالع العصر عُمارة بن حمزة كاتب السفاح والنصور وقد ولاه الأخير في سنة ١٥٦ على كور دجلة والأهواز وفارس ثم ولاه المهدي خراج البصرة ، وعاش حتى سنة ١٩٩ للهجرة^(٣) ، وكان المهدي يجلّه ، وكان جواداً غير أنه كان فيه تبه شديد حتى ضُرب المثل بتيهه ، فقيل أتبه من عُمارة ، وتُرُوَى له في التيه والكرم حكايات كثيرة . وهو أحد الكتاب البالغاء وقد اشتهر بتدبيجه لأول رسالة من رسائل الحميس ، وهي رسالة كانت تُكْتَسَبُ في عهد كل خليفة عباسي ، وكان موضوعها تأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة الحاضر وتعداد مناقبه وبيان ما أثره وأنه أحق أهل بيته بالخلافة . واشتهر أيضاً برسالة

الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ١٥٤٢/٢٤٢
والجهشيارى ص ٩١ ، ١٢٣ وفي مواضع أخرى
متفرقة ، راجع الفهرس .

(١) النجوم الزاهرة ١٠٣/٢ .
(٢) الرزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٧٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ١٦٤/٢ وانظر في ترجمته

لُصِّبَتْ بِاسْمِ الْمَاهَانِيَةِ وَفِيهَا يَقُولُ ابْنُ النَّدِيمِ : « الْكُتُبُ الْمَجْمَعُ عَلَى جُودِهَا عَهْدُ أَرْدَشِيرِ ، كَلِيلَةُ وَدَمْنَةُ ، رِسَالَةُ عِمَارَةَ بْنِ حَمْزَةَ الْمَاهَانِيَةِ ، الْيَتِيمَةُ لِابْنِ الْمُقَفَّعِ ، رِسَالَةُ الْخَمِيسِ لِأَحْمَدَ بْنِ يَوْسُفَ » . وَيُظْهِرُ أَنَّهَا كُتِبَتْ لِعَامِلٍ كَتَبَ يَسْتَشِيرُ عَيْسَى بْنَ مَاهَانَ فِي كُلِّ مَا يَأْخُذُ مِنَ الْأَمْرِ وَيَدْعُ ، وَفِيهَا يَقُولُ لَهُ عَلَى لِسَانِ الْخَلِيفَةِ (١) :

« أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَنْكُرُ قُرْبَ الطَّاعَةِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ قُرْبَ بَعْضِ الْأُمُورِ مِنْ بَعْضٍ ، لِسُرْعَةِ تَقَلُّبِ الْقُلُوبِ وَاخْتِلَافِ الْحَالَاتِ عِنْدَ مَيْبَلِ الْهَوَى وَلَا يَنْكُرُ جَرَى الْمَقَادِيرِ بِغَيْبِ ذَلِكَ عَنِ الْعِبَادِ وَاسْتِثْنَاءِ اللَّهِ بِعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِهِمْ إِلَّا بَغْتَةً . بَلْ قَدْ عَلِمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَقْوَامًا فِي قُلُوبِهِمْ ضِعَاثُنَ ، دُونِهَا الْغَدْرُ ، يُظْهِرُ أَسْرَارَهُمْ وَيُخْرِجُ أَضْغَانَهُمْ ، ثُمَّ يَبْلُغُ بِغَضَبِهِ مِنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ عِنْدَهُ عَزِيزًا ، وَلَمْ يَكُنْ بِهِمْ امْتِنَاعٌ . غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ أَنْكَرَ أَنْ تَعْجَلَ إِلَى ابْنِ مَاهَانَ — وَإِنْ كَانَ مَحَلًّا بَارِزًا — بِأَمْرٍ دُونَ مَوْأَمَرَتِهِ (مَشَاوِرَتِهِ) وَيَكْرَهُ لَكَ الْعَجَلَةَ فَإِنَّهَا مَوْكَلٌ بِهَا النَّدِيمُ وَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : أَصَابَ مَتَأْمَلٌ أَوْ كَادٌ . وَقَالَتِ الْعَرَبُ : فِيمَا تَرَيْنَ أَمْرًا رَشِدًا فَتَبَيَّنَ ثُمَّ ارْعَوْهُ أَوْ أَقْدِمْ وَأَحْكَمْ . وَلِحَقٍّ مَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ التَّبَيُّنِ وَمَا حَذَّرَ أَنْ يَصَابَ قَوْمٌ بِجَهَالَةٍ وَمَا خَوَّفَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ النَّدَامَةِ ، فَلَيْسَ يَبْرَحُ الْمَرْءُ بِخَيْرٍ مَا فَرَّغَ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاتَعَزَّ وَاسْتَيْقِظَ » .

وَوَاضِحٌ حَرَصَ عِمَارَةُ عَلَى التَّمَثُّلِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَاسْتِعَارَةِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ ، فَقَدْ حَلَّ فِي آخِرِ كَلَامِهِ قَوْلُهُ جَعَلَ شَأْنَهُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) .
وَمِنْ كُتُبِ الْمَنْصُورِ مَسْعُودَةُ بْنُ سَعْدِ بْنِ صُؤْلٍ أَحَدِ مَلُوكِ جَرَجَانَ فِيمَا يُقَالُ ، وَكَانَ يَكْتُبُ أَوْلَا لِخَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ وَزَيْرِ الْمَنْصُورِ ثُمَّ لَوْلِيهِ عَلَى فَارِسَ .
وَلَمَّا اتَّخَذَ الْمَنْصُورُ أَبَا أَيُّوبَ الْمُورِيَانِيَّ وَزَيْرًا وَقَلَّدَهُ الدَّوَابِينَ أَقَامَ مَسْعُودَةَ عَلَى دِيْوَانِ الرِّسَائِلِ ، وَيَرْوَى يَاقُوتُ فِي تَرْجُمَتِهِ لِابْنِهِ عَمْرُو أَنَّ الْمَنْصُورَ قَالَ يَوْمًا لِكُتَّابِهِ : اكْتُبُوا لِي تَعْظِيمَ الْإِسْلَامِ ، فَتَبَدَّرَ مَسْعُودَةَ فَكُتِبَ (٢) :

(١) انظر الرسالة بأكملها في جمهرة رسائل العرب (٢) معجم الأدباء، لياقوت ١٦/١٢٨ .
لأحمد ركني صفحت ١٢٧/٣ .

« الحمد لله الذى عظمَّ الإسلام واختاره وأوضحه وأناره وأعزّه وأنافه (أعلاه) وشرّفه ، وأكمله ، وتمّمه ، وفضّلّه ، وأعزّه ، ورفعّه ، وجعله دينه الذى أحبّه واجتنباه (اختاره) واستخلصه وارفضاه ، واختاره واصطفاه ، وجعله الدين الذى تعتدُّ به ملائكته وأرسل بالدعاء إليه أنبياءه وهدى له من أراد لإكرامه وإسعاده من خلقه فقال جلَّ من قائل : (إن الدين عند الله الإسلام) وقال جلَّ وعلا : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبَلَ منه) وقال : (مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ) . فبهذا الإسلام والدخول فيه والعلم به وأداء شرائعه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكته ورسله إلى رضوان الله ورحمته ، وجواره فى جنّته ، وبه تحرّروا من غضبه وعقوبته ، وأمنوا نكال عذابه وسطوته .»

فقال المنصور: حَسْبُكَ يَا مَسْعُدَةَ، اجْعَلْ هَذَا صَدْرَ الْكِتَابِ إِلَى أَهْلِ الْجَزِيرَةِ بِالْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ . وفى جوانب من التعميد أسجاع مما يدل على القصد إلى العناية الفنية وأن الكاتب يريد أن يأسر الأسماع بجمال الجرس والأداء. ومن كُتَّاب المنصور أيضا يوسف^(١) بن صُبَيْح ، وكان يكتب ، فى ديوان الكوفة لبنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على عم المنصور فى مطلع الدولة العباسية ، حتى إذا أخفقت ثورته على ابن أخيه واستر بالبصرة عند إخوته لجأ يوسف إلى أصحابه من الكتاب فى ديوان المنصور ، فألحقوه به . ويظهر أنه ظل يعمل فى ديوان الخلافة ، حتى إذا كان البرامكة قربوه ، فكان يختلف بين دواوينهم ودواوين الرشيد ، ومن مآثور ما يُروى له رسالة قصيرة كتبها عن عبد الله بن على إلى ابن أخيه السفاح يعزّيه عن ابن له على هذا النمط^(٢) :

« أما بعد فإن أحق الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جلَّ وعزَّ مَنْ كَانَ إِمَامًا خَلَقَ اللَّهُ وَخَلِيفَةً أَرْسَلَ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَعَزَّزَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِفَهْمِكَ ، وَارْجِعْ فِي وَعْدِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنَ الصَّابِرِينَ إِلَى عِلْمِكَ .»

ومن الكُتَّاب لعصر المنصور جبل بن يزيد كاتب عمارة بن حمزة وفيه يقول صاحب الفهرست : « كان مترجماً وكان من معدودى البلغاء والبرعاء^(٣) » وقد

(٢) جبهة رسائل العرب ٩/٣ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

(١) انظر فى ترجمته الأوراق للصولى (أخبار

الشعراء) ص ١٤٦ والجيشيارى ١٣١ ، ١٧٥

احتفظ له ابن طيفور في كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة بديعة من رسائله ، منها رسالة كتب بها إلى المهدي يعزیه عن أبيه ويهنته بالخلافة ، ويظهر أنه كتبها عن عمارة بن حمزة وفيها يقول^(١) :

« أعظم بالمصيبة مصيبة نزلت ، وأعظم بالنعمة نعمة حدثت ، وإن أحق من انتصح لله في قضائه واعترف بوجود حُسن بلائه من علم أن الفجائع أمرٌ جرت به سُنن الله بين عباده تذكيراً وتحذيراً . . . ولولا ذلك لم يكن المعز أن يروم تعزية أمير المؤمنين . . . فعظم الله على الحادث النازل أجره ، وأحسن على الخلافة عونه ، ثم لا وكله الله في شيء من الأمور إلى نفسه ، وألمه العمل بما يرضيه ويبلغ به تأدية حقه ، فيما استرعاه واستحفظه وجعله أهله وأحق به » .

ومن الكتاب أيضاً لعصر المنصور غَسَّان بن عبد الحميد كاتب^(٢) عمه سليمان بن علي واليه على البصرة لسنة ١٣٣ للهجرة ، وفي الفهرست أنه كتب لابنه جعفر بن سليمان على المدينة سنة ١٤٦ للهجرة ويقول : « كان بليغا حلوا الكلام لطيف المعاني^(٣) » واحتفظ له أيضاً ابن طيفور بطائفة جيدة من رسائله ، وأكثرها يدور في التعزية ، ويظهر أنه كان يتقنها إتقاناً بعيداً على نحو ما نرى في هذه القطعة من رسالة يعزى بها المهدي عن أبيه^(٤) :

« أما بعد فإن الله تبارك وتعالى جعل المقادير علماً ثابتاً عنده وكتاباً سابقاً منه ، فجرت عليه ومضت به الأمور في قدرته ، والعباد في قبضته . وليس عبئاً من عبئده إلا وقد كان عمره في الدنيا موظوفاً قبل خلقه ، وكان ما يصيبه منها مكتوباً عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهل عبادته أهل حظوظ متكاملة في السعادة وأهل فضائل متظاهرة في الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه ، وانتجب منهم خلفاءه ، وألزمهم على ذلك الموت الذي لا بد منه وجعله الحياة لهم فيما عنده ، فكانت وفاة من توفى منهم له سعادة فيما يصيرهم إليه وحياة من أحيا منهم له كرامة فيما يصطنعهم له ، فيمضى الأول منهم سعيداً ويبقى الباقي منهم مصطنعاً فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خير منها ولا يبقى باقياً إلا ليزداد خيراً فيها .

(١) جمهرة رسائل العرب ١٤٨/٣ .

(٢) الفهرست ص ١٨٣ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ١٤٩/٣ .

(٤) الجهشيارى ص ١١٠ .

والماضى مفقود مستخالف منه ، والباقي محمود مرضى به ، وأمر الرعية قائم معدول فيه .

وننتقل إلى عصر المهدي فلتقى بأبي عبيد الله معاوية^(١) بن عبيد الله بن يسار وكان المنصور ضمته إليه حين أنفذه إلى الري ليكتب له ويصدر عن رأيه ومشورته ، فلما ولي الخلافة استوزره وفوض إليه الدواوين . حتى إذا كانت سنة ١٦٣ صرفه عن وزارته واقتصر به على ديوان الرسائل وما زال يليه حتى سنة ١٦٧ . ثم صرفه المزدى عنه أيضا ، ولم يلبث أن توفي سنة ١٧٠ للهجرة . وكان غزير العلم جذاب الحديث بارعاً في القول ، ومن طريف ما رواه له الجاحظ قوله : « التماس السلامة بالسكوت أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أشد من قمع بطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وذو الفقر قاهر لعز الصبر ، كما أن عز الغنى مانع من الإنصاف إلا لمن كان في غريزته فضل كرم وفي أعراقه مناسبة لعلو الهمة^(٢) » . وكان أهل الحراج يعدّون بصنوف من العذاب : من السباع والزناير والسنانير ، فكتب إلى جميع العمال برفع العذاب عنهم . وقد اشتهر ببراعته في التحميدات التي كانت تصدر بها الرسائل والكتب من مثل قوله^(٣) :

« الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمة قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم واستيجابهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشرعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تجديد وحيه ومتابعة رسله رحمة تلافاهم بها بعد تقديمها ومِنَّةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطولا على العباد بالنعماء ، وإعذاراً إليهم بالحجج وتقديمه بالوعد وإنذاراً إليهم عواقب سخطه في المعاد . والحمد لله الذي ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل وطموسٍ من معالم الحق ودروسٍ من سبيل الهدى ، عند الوقت الذي بلغ في سابق علمه ومقاديره أن يجتبي فيه لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء، الظاهرين بحقه القاهرين لمن ابتغى

(١) الجهشيارى ص ١٢٦ وفي ثانيا حديثه عن أيام المهدي ووزرائه وكتابه ، وانظر فيه كتب التبريح مثل الطبرى وابن الأثير والفخرى

ص ١٢٤ .

(٢) الجهشيارى ص ١٥٦ .

(٣) جمهرة رسائل الرب ص ١٦٥ .

سبيلا غير سبيله ، فعظّم حرّمته ووسّع حَوْرته وصدع بأمره وجاهد عن حقه في حَوَمات الضلالة وظلمات الكفر بالحق المبين والسراج المنير ، ثم جعله مصدقا لمن سبقه من الرسل ومجدداً لما بُعثوا له وهدى ورحمة »

ومن البلغاء المحبدين الذين كتبوا له في دواوينه لإسماعيل بن صبيح ومطرف^(١) ابن أبي مطرف العبّسدي الذي كان يتقلد ديوان الخراج ، ويظهر أن أبا عبيد الله كان يستعين به من حين إلى حين في كتابة بعض الرسائل الديوانية ، فما أثر له رسالة إلى بعض العمال كلها إعدار وإنذار على هذه الشاكلة^(٢) :

« أما بعد فإن الله حبّب إلى كل مسلم شُعبية من دينه ، فمنهم من حبّب إليه الصلاة فزوّ قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، يحذّر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، ومنهم من حبّب إليه الزكاة فهو ينفق ماله بالليل والنهار سراً وعلانية ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ، ومنهم من حبّب إليه الجهاد فهو بين المسلمين وبين عدوهم يذب عن حريمهم ويقاتل من دونهم وفاءً بعهد الله وتسليماً لبيعة الله ، فأما الراسخون في العلم ممن قد عرف سيرتك ، وما أبدى لهم الله من سريرتك ... فهم يعرضونك على الله في أدبار السجود وعند إدبار النجوم ويسألونه بألوانه مخلصين وبأسائه ملّحفين أن يصيبك بعذاب من عنده أو بأيديهم ، لما استحلّت جنودك من سفك الدماء ، وأباحت رسلك من حرّم النساء ، ولظلمك اليتامى واقترائك على ذوى القُرْبى وتعريضك إياهم في فتوحك للعقاب والهلكة والخلاف والمعصية ، فويل لك ولكتّابك مما كتبت أيديكم وويل لكم مما تكسبون ، وقد وردت كتبك - بحمد الله - من أمير المؤمنين - على حلم لا يوهنه الغضب وعلى عمل لا يغيره الكذب وعلى إيمان لا يستخفه الذين لا يؤقنون » .

وواضح كثرة اقتباساته من ألفاظ الذكر الحكيم ، من مثل قوله تعالى :
(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً) وقوله : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية) وقوله : (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة

ص ١٦٦ .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٢١٣/٣ .

(١) انظر في أخباره ترجمة ابنه عمر بن مطرف في معجم الأدباء ٧٢/١٦ والجهشياري

الله وتثبيتاً من أنفسهم . .) وقوله : (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) وقوله : (ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده أو بأيدينا) وقوله جل ذكره : (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) . وقد توفي مطرّف سنة ١٦٤ للهجرة وكان له ابن كاتب يسمى عمر^(١) تقلد ديوان المشرق للمهدى والهادى وقلّده الرشيد ديوان الأزمّة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة في عصر المهدي ، وربما لحفته هذه الشهرة في عصر المنصور محمد^(٢) بن حجر كاتب ولاية أرمينية والشام ، واتخذه العباس بن محمد أخو المنصور كاتباً له ، ولعله تعرف عليه في أثناء نهوضه بقيادة الجيوش في غزو الروم ، وقد كتب عنه رسالة إلى المهدي حين جعل ابنه الرشيد ولي عهده بعد أخيه الهادي سنة ١٦٣ وفيها بوثّق البيعة أولى العهد الجديد على هذا النمط^(٣) :

« قد أتتنا بيعة هرون على حين ظمأ إليها وتطلّع نحوها، فتبادرتُها أكفُنًا، وأسرع إليها شاهدنا وغائبنا وبايعنا بيعة رضوان من الله بصحة من نيّاتنا وسلامة من صدورنا ، مستبشرين ببيعتنا راغبين فيما صَفَقت^(٤) عليه أيماننا ، عارفين بأنها مُفْتَتَحَةٌ نعمة ومقدمة فضيلة ودرجة في الخير رفيعة مقدمين للسرور بها نُصَحَ الجُيُوب^(٥) باذلين للرجاء فيها ثمار القلوب . »

ونمضى إلى عصر الرشيد، ويلقانا يحيى^(٦) البرمكي ، أحد من جمع جمعاً رائعاً بين ثقافة العرب وثقافة الفرس، وكان قلده المهدي الكتابة لابنه، منذ جعله ولياً عهده، والقيام على نفقاته وتدبير أمر الجيوش التي كان يقودها الرشيد ضد الروم . وحسّن أثره عنده إلى أقصى غاية حتى إذا ولي الخلافة قلده أمور الرعية وسلمه خاتم الخلافة يأمر وينهى كما يشاء ويستعمل على الولايات والأعمال

(٥) ناصح الجيب: ناصح القلب والصدر .
(٦) انظر في ترجمة يحيى كتب التاريخ في خلافة الرشيد من مثل الطبري وابن الأثير واليعقوبي وراجع الفخري والجهشيارى ص ١٥٠ ، ١٦٨ وفي أيام الرشيد ، وراجع في بلاغته وبلاغة أبنائه العقد القريني ٥٨/٥ .

(١) انظر ترجمته في ياقوت ٧١/١٦ والفهرست ص ١٨٤ .
(٢) انظر ترجمته في الفهرست ص ١٧٢ .
(٣) جمهرة رسائل العرب ٣/١٦٩ .
(٤) صفق يده بالبيعة : ضرب يداً بيد دلالة على التزامها .

ويعزل كما يريد ، ولم يلبث الرشيد أن ولى ابنه جعفرًا على المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية وولّى ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وسبق أن تحدثنا عن ذلك كله في الفصل الأول من فصول هذا الجزء ، ومضى ما نهض به البرامكة في الشؤون الإدارية والثقافية إلى أن نكبهم الرشيد في سنة ١٨٧ للهجرة إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وأخيه الفضل حتى ماتا في الحبس .

وكان يجي سَيوسًا حصيفًا دقيق الحس مهذب الذوق رقيق الشعور ، وحوّل مجلسه كما أسلفنا إلى ندوة علمية أدبية كبرى يتحاور فيها كبار العلماء من كل صنف ، وكان آية في البلاغة والإيجاز ، وتوقف الجهشيارى مرارا ليروى بعض المأثور من كلامه من مثل قوله : « البلاغة أنْ تكلم كل قوم بما يفهمون » وقوله لجعفر ابنه : « يا بني انتسّق من كل علم شيئًا فإنه من جهل شيئًا عاداه وأنا أكره أن تكون عدوًّا لشيء من الأدب » وقوله : « الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون » وقوله : « العَجَبُ للسلطان كيف يحسن ، وأو أساء كل الإساءة لوجد من يزكّيه ويشهد بأنه محسن » وقوله : « لست ترى أحدًا تكبّرني إمارة إلا وقد دل على أن الذي نال فوق قدره ، ولست ترى أحدًا تواضع في إمارة إلا وهو في نفسه أكبر مما نال في سلطانه » . وكتب إلى الرشيد لما نكبه وسجنه رسالة بليغة ، وفيها يقول^(١) :

« من شخص أسلمته ذنوبه وأوثقت عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدّان^(٢) ، فحلّ في الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدعة ، واقترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود^(٣) ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قد عاين الموت ، وشارف القموت ، جزعا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفا على ما فات من قربك » .

(٢) الحدّان : نوازل الدهر ونوائبه .

(٣) الهجود : النوم .

(١) العقد الفريد ٦٨/٥ وغرر الخصاص

الواضحة للوطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ)

ص ٤٠٦ وجمهرة رسائل العرب ٢٢١/٣ .

وفى هذه العبارات المحبوكة المسجوعة ما يدل على عناية يحيى بتعبيره وحوّكه الفنى ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن البرامكة كانوا من أهم العوامل فى شيوع السجع فى الكتابة الديوانية ، وحقاً أنه لا يطرد دائماً فى كتاباتهم ، ولكن نحس ميلهم الواضح له هم وبعض كُتّابهم ومن كانوا يكتبون إليهم .

وكان جعفر^(١) لا يقل عن أبيه بياناً وفصاحة وبلاغة ، إن لم يتقدم فى ذلك خطوات ، وكان مثقفاً بمعارف عصره ثقافة واسعة وضمّه أبوه إلى أبى يوسف القاضى فعلمه وفقهه حتى صار نادرة زمنه . وحظى عند الرشيد حظوة كبيرة لم ينلها أحد قبله ، حتى قتله سنة ١٨٧ لما ثبت عنده من إطلاقه يحيى بن عبد الله العلوى من سجنه ، على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول . وكانت تُضربُ ببلاغته الأمثال ووصفه ثمامة بن أشرس فقال : « قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة^(٢) » . ومن رسالة له فى العفو إلى أحد عماله^(٣) :

« عندنا الاعتذار لما اقترفت ، وتصديق كل ما قلت ، واحتججت بذكرك ، واعتذرت بوصفه ، والإسقاط لما جحدته ، والإكذاب للجور الذى اقترفته ، والرجوع عما أنكرته ، والزيادة فيما اخترته ، استدعاء لك وإن انصرفت ، وحياطة لما قدمت وإن ذُمت ، وإيثاراً للإغضاء والاحتمال فإنهما أبلغ فى الإصلاح ، وأنجع فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج إليه فى مثلك ممن تؤمن عليه قريحته ، وترده إلى الاستقامة تجربته »

والرسالة مبنية على السجع ، وكان جعفر يؤثره فى كتاباته ، مبالغة منه فى التألق والتنميق ، وهو تنميق كان يطلبه فى كل ما يتصل به حتى فى ثيابه^(٤) . وكثير هم الكتاب البلغاء الذين كتبوا فى دواوين الرشيد والبرامكة وفى مقدمتهم

والعقد الفريد ٥ / ٥٨ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٩٠ .

(٤) الجهشيارى ص ٢١٥ .

(١) انظر فى جعفر كتب التاريخ فى خلافة

الرشيد والجهشيارى (انظر فهرس) .

(٢) البسان والتبيين ١ / ١٠٦ . وانظر وصف

سهل . ها ، ون بلاغة . آداب ٢ / ٦٩ .

إسماعيل^(١) بن صبيح وكان يكتب في أول حياته لأبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله ابن يسار وزير المهدي ورئيس دواوينه ، ولما ألحق المهدي يحيى البرمكي بابنه الرشيد اتخذه كاتبه ، حتى إذا ولي الهادي توسط له عند وزيره إبراهيم الحراني فقلده ديوان زمام الشام وما يليها ، ولما صارت الأمور بيد يحيى في عصر الرشيد قلده ديوان الخراج ، ولم يلبث أن قلده ديوان الرسائل ، وظلّ على هذا الديوان مدة في عصر الأمين . وما يؤثر له رسالة عن الرشيد إلى جميع العمال بما عقد بين ولديه الأمين والمأمون من العهد بعده وتعليق هذا العهد في بيت الله الحرام ، وفيها بقول^(٢) :

« قد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أمّلت الأمة ومدّت إليه أعناقها . وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ، وجمع ألفتهم ، وصلاح دهمائهم ، ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم ، حتى ألقوا إليهما أزمّتهم وأعطوهما بيعتهم وصّفقات إيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلّظة عليهم . أراد الله فلم يكن له مرّد ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ، ولا على صرّف له عن محبته ومشيتته ، وما سبق في علمه منه . وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمة كافة ، لا عاقب لأمر الله ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه » .

ومن الكتّاب البلغاء الذين اتصل عملهم في الدواوين من عهد المنصور حتى هذا العهد يوسف بن صبيح ، وقد عرضنا له آنفا ، وفي الجهشيارى أن يحيى البرمكي أمره بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد^(٣) ، وفي الأوراق للصولي رسالة له عن الفضل بن يحيى في حاجة لشخص إلى أحد العمال ، وهي تجرى على هذه الشاكلة^(٤) .

(١) انظر في اسماعيل الجهشيارى ص ١٥٠ .
 (٢) الطبرى ٤٨١/٦ وما بعدها .
 (٣) الجهشيارى ص ١٧٥ .
 (٤) الأوراق للصولي (قسم الشعراء) ص ١٥٨ .
 ١٦٨ ، ٢٥٧ - ٧٧ ، ٣ وفي مواضع متفرقة .

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمره ، لأن الصنعة حرمة المصطنع وسيلة إلى مصطنعه سيّما عند من يحسن الصنعة ويستتمها ، مستتباً للشكر عليها والثناء بالجميل بها ، بسط الله بالخير يدك ، ووصل به أسبابك وأعانك عليه وجعلك من أهله . »

ومن الكتاب المفوّهين حينئذ محمد بن الليث ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كتب ليحيى بن خالد . . ويعرف بالفقيه وكان بليغاً مترسلاً كاتباً فقيهاً متكلماً بارعاً^(١) . ومن أروع ما أُثر عنه رسالته^(٢) التي كتبها للرشيدي إلى قسطنطين السادس إمبراطور بيزنطة ، وهي تمتد إلى نحو سبعين صحيفة ، وفيها يدعو الرشيدي إلى الإسلام ، وقد أفاض ابن الليث في وصف رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وما طوى فيها من الهدى للبشر وإنقاذهم من ظلمة الضلال ، كما أفاض في وحدانية الله ورسالات الأنبياء وهيمنة الإسلام وسلطانه على تلك الرسالات والرسالة أشبه بدفاع قوى عن الإسلام وشريعته ، وكأن ابن الليث استمد فيها كثيراً مما كان يجادل به المتكلمون النصارى وأصحاب الملل والنحل من حوله . وهو تارة يجادل بالمنطق وتارة يجادل بآيات الرسالة الباهرة ، ناقضاً ما يردده الرهبان من أن عيسى ابن الله وما يكررونه من نظرية الأب والابن والروح القدس ، مناقشاً في ثنايا ذلك آيات من الإنجيل ومن العهد القديم ، وملوحاً بما سينزاه الرشيدي في ديارهم من خراب ودمار ، وأن الروم لو تابعوه لعمّ مساكينهم وذُرَاعهم وفتراءهم وضعفاءهم من العدل ما يجعلهم يعيشون في أمن وسلام ، والذاقوا لذة الخفض ودعة الحال ورفاهية العيش والرخاء ، ولاستقاموا على الشريعة الصحيحة والتوحيد القويم . ويروى الرواة أن جعفر بن يحيى كتب إلى محمد بن الليث يستوصفه الخطّ ، فكتب إليه رسالة بديعة في الخط والقلم على هذا النمط^(٣) :

« أما بعد فليكن قلمك بحريّاً ، لا متيناً ولا رقيقاً ما بين الرقة والغلط ، ضيق الثقب ، وأبره بريّاً مستويّاً كمنقار الحمامة ، واعطيف بطنه ورقق شفتيه ، وليكن مدادك فارسياً خفيفاً إذا وزنته ، وانقعه ليلة ، ثم صفّه في

٢٥٢/٣ .

(٢) العقد الفريد ٤/١٩٥ .

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) انظر في هذه الرسالة جمهرة رسائل العرب

الدَّوَاةُ ، وليكن قرطاسك رقيقاً مستويَ النَّسْجِ ، تخرج السَّحَاةُ (١) مستوية من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك في طرف القرطاس الذي في يسارك ، وأقله في الوسط ، ولا تَمَطُّطْ في الطرف الآخر ، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة ، ولا تترك الأخرى بغير مَطَّطٍ ، فإنك إذا قرنت القليل كان قبيحاً ، وإذا جمعت الكثير كان سَمِجَاجاً . ثم ابتدء الألف برأس القلم كله واخْطُطْهُ بعرضه واختمه بأسفله . واكتب الباء والتاء والسين والشين والمطَّة العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ورأس كل مُرْسَلٍ برأس القلم . واكتب الجيم والحاء والحاء والذال والذال والراء والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسن السفلى من القلم . وامْطُطْهُ بعرض القلم ، والمط نصف الخط ، ولا يقوى عليه إلا العاقل ، ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضاً إلا بالنظر إلى اليد في استعمالها الحركة ، والسلام .

ولإنما نقلنا هذه الرسالة بطولها ، لندل على مدى احتفال الكتاب باختيار الأقلام وبجودة الخط ، حتى تجرى الأقلام في القراطيس جريان الماء ، وحتى يروع الخط برونقه وبهائه ، وحتى الحروف ومطاتها العليا والسفلى ، كل ذلك يُكْتَبُ بقسطاس . ولا بد من أن تكون السطور معتدلة متناسقة ، وقطع القراطيس مقطوعة بانتظام ، حسنة النسج والهندام ، ولا بد للكاتب من أن يراعى مواضع سِنِّ القلم من كتابة الحروف ، ولا بد من أن يراعى التوازن في مدات هذه الحروف ومطاتها . وبأيدي محمد بن الليث وغيره من الكتاب في العصر العباسي تطوَّر الخط العربي وارتقت صناعته رقياً بعيداً ، وهو رقى كان يرافق احتفالهم بألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم حتى تصبح الكتابة كأنها وَشْيٌ خالص ، وَشْيٌ في العين ، وَوَشْيٌ في السمع ، وَوَشْيٌ في العقل والذهن .

وكان يكتب لجعفر بن يحيى البرمكي أنس بن أبي شريح ، وقد سلَّكه ابن النديم في البلغاء العشرة الأوَّل في العصر ، وفيه يقول الجاحظ : « كان زكياً فَمَهِيماً نَقَى الألفاظ جيد المعاني حسن البلاغة (٢) » وعدّه الرشيد شريك جعفر

(١) السحاة : القطعة من القرطاس .

(٢) الجهمياري ص ٢٣٩ .

في إثمه ، فلما قتله أذاقه نفس المصير وصلابه . ويؤثر من تحميداته قوله^(١) :
 « الحمد لله الذي بالقلوب معرفته ، وبالعقول حُجَّتَه ، الذي بعث محمداً
 صلى الله عليه أميناً فوفى له ، ومبداً فآدى عنه ، فحجَّ به المنكر ، وتألَّف
 به المدبر ، وثبَّت به المستبصر ، إلى أن توفَّاه على منهاج طاعته ، وشريعة دينه
 ثم أورثكم عهده ، ونخصَّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى » .

والسجع واضح في هذا التحميد ، وأهل في ذلك ما يؤكد من بعض الوجوه
 ما قلنا من أن البرامكة أشاعوا في كتاب دواوينهم ذوق النسيج ، وإن لم يطرد
 في جميع رسائلهم وآثارهم ، لكنه على كل حال أخذ يشيع في كتاباتهم ، وقد
 عمل في دواوينهم ودواوين الرشيد كثير من الكتَّاب الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد
 مثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن ومثل سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا في عهد الرشيد قمامة بن أبي يزيد ، وكان يكتب
 أولاً لصالح^(٢) بن علي ، ثم أصبح كاتباً للقاسم^(٣) بن الرشيد ، ثم اختص بعبد
 الملك بن صالح وإلى الرشيد على الجزيرة والشام ومصر . وسعى على عبد الملك
 إلى الرشيد وثبت كذبه فقتله صبرا سنة ١٧٨ للهجرة . وكان اسماً فصيحاً بليغاً ،
 وما أثر له قوله من رسالة وجهها - فما يبدو - عن عبد الملك بن صالح إلى
 الرشيد^(٤) :

« كل ما قبيلنا وما يتناهى إلينا من ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده
 أقصاها وأدناها في صلاح ذلك كله واستقامته وهدوئه على أفضل ما عود الله
 أمير المؤمنين فيه العلو والعافية ، وأنا أحتذى فيه من أمير المؤمنين أمرين : إما
 مقدمة عرفني فيها رأيه فأنا أزمها ولا أعدل عنها ، وإما أثر قد نهجه أمير المؤمنين
 فأنا أركبه وأتبعه ولا أفارقه . فعلى هذا - بحول الله - قوتي ومعتمدى ، قد كنى
 الله به في الهداية ، وأعطى فيه الخير والمَنَّ والسعادة ، فله الحمد والشكر » .

ومن عرفوا لعصر الرشيد بالكتابة البليغة جعفر بن محمد بن الأشعث ، وكان

(١) جمهرة رسائل العرب ١٩١/٣ .
 (٢) الجهشيارى ص ٢٦٥ .
 (٣) جمهرة رسائل العرب ٣٢٨/٣ .
 (٤) ص ١٧٣ .

الرشيد جعل ابنه الأمين في حجّره ثم جعله في حجر الفضل^(١) بن يحيى البرمكي ، وولاه على خراسان ثم صرفه عنها سنة ١٧٣ للهجرة^(٢) ، وأعله لذلك كله كان يضطغن على يحيى البرمكي ويُرَوَى أن يحيى حاول أن يسند إليه بعض الأعمال فكتب إليه يستغفبه برسالة يقول فيها^(٣) :

« شكرى لك على ما أسألك الخروج منه شكر من نال الدخول فيه ، فأما عذرى في تطويل الكتاب إليك فلم يذهب . على أن وجوه الحوائج قد يكثر الكلام فيها وتشتد قراءتها ، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ ، وإن نفسى جاشت بعظيم حاجتها » .

ومن الكتاب لعصر الرشيد أيضا عمر بن مهران كاتب^(٤) الخيزران أم الرشيد ، وقد ولاه الرشيد على خراج مصر سنة ١٧٦ للهجرة وكان بعض أهلها قد اعتادوا المتطّل بالخراج وكسره ، فأحضر عمر أشدهم مدافعة وإلطاط^(٥) فاستمهله مدة ، فأمهله ، ثم طالبه ثانية ، فأقسم عمر أن لا يؤديه إلا ببغداد . وسرعان ما قدم له الخراج فلم يقبله منه ، وحمله إلى بغداد فأدّى الخراج بها ، وخاف الماطلون ، فأدّوا خراجهم ، وكتب عمر مع الرجل إلى الرشيد^(٦) :

« إني دعوت بفلان وطلابته بما عليه من الخراج فلوانى واستنظرنى^(٧) ، فأنظرته ثم دعوته فدافع ومال إلى الإلطاط ، فأليت أن لا يؤديه إلا فى بيت المال بمدينة السلام ، وجملة ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذته مع فلان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلى بوصوله فعل إن شاء الله » .

ونخرج إلى عصر الأمين ، ويتولى وزارته ورياسة دواوينه الفضل بن الربيع ، ويظل إسماعيل بن صبيح على ديوان الرسائل ، ويروى الطبرى أنه لما عزم الأمين على خلع المأمون أشار عليه إسماعيل أن يكتب إليه بمحاجته له للاستعانة برأيه ويسأله القدوم عليه ، فقال الفضل للأمين : القول ما قال يا أمير المؤمنين ، قال

الزاهرة ٧٨/٢ وما بعدها .
(٥) إلطاطاً : جعورداً ومطالة .
(٦) طبرى ٤٥٩/٦ .
(٧) لوانى : مطلقى . استنظرنى : استمهلى وأجاني .

(١) الجهشيارى ص ١٩٣ .
(٢) النجوم الزاهرة ٧٢/٢ .
(٣) كتاب الصنائع لأبى هلال (طبعة الحلبي) ص ٣٣٨ وانظر الجهشيارى ص ١٧٩ .
(٤) الجهشيارى ص ٢١٨ وانظر النجوم

الأمين فليكتب بما رأى ، فكتب إليه الرسالة التالية (١) :

« من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، أما بعد فإن أمير المؤمنين روى (٢) في أمرك والموضع الذي أنت فيه من تغررك وما يؤمل في قربك من المعاونة والمكانفة (٣) على ما حمّله الله وقلّده من أمور عباده وبلاده ، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية وأمر به من إقرارك على ما تصيّر إليك منها . ورجّأ أمير المؤمنين أن لا يدخل عليه وكتّف (٤) في دينه ، ولا نكث في يمينه إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه ، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله . وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدٌ للثغور ، وأصلح للجنود ، وآكد للفتية ، وأردُّ على العامة ، من مقامك ببلاد خراسان . منقطعاً عن أهل بيتك ، متغيّباً عن أمير المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتديبيرك . فاقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعمّونه ، بأبسط أمل . وأفسح رجاء ، وأحمد عاقبة ، وأنفذ بصيرة ، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره . واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاحُ أهل بيته وذمته ، والسلام

والرسالة تحمل خصائص إسماعيل وما كان يعنى به في كتابته من إجادة القول وإتقانه ، وهي إجادة تُردُّ إلى دقته في اختيار الألفاظ والوصاغات بحيث تصبح مظهراً للجمال الفني الأدبي . وبحيث يجد فيها السامع من لذة الكلام ما يتمتع وبروعه .

ومن الكتاب البلاء الذين عملوا في دواوين الأمين موسى (٥) بن عيسى بن يزدانيروذ ، وقد احتفظ ابن طيفور برسالة له إلى الأمين يتحدث فيها عن موسم الحج وسلامته ودعته ، وهي تجري على هذا النمط (٦) .

« أما بعد فإن الله بحمده ومسنّه هو وليّ أمير المؤمنين ووليّ النعمة عليه فيما حمّله واستحفظه ، وجعله القائم به والحافظ عليه ، من ولاية دينه ورعاية أهله ،

(٤) وكف : عيب وفساد .

(٥) الجهشيارى ص ٢٨٩ .

(٦) حمهرة رسائل العرب ٣/٣٥٠ .

(١) الطبري ١١/٧ .

(٢) روى : فكر .

(٣) المكانفة : المساعدة .

والمرجوه لإتمام ذلك عنه ورحمه وإني كتبت إلى أمير المؤمنين يوم التفرس الأول ، وقد قضى الله مناسكتنا ، وتمم حجاجنا ، وأرانا في مواقفنا وإفاضتنا ومن حضر الحج معنا من رعية أمير المؤمنين أفضل ما لم يزل يُسبلى^(١) الله أمير المؤمنين ويعوده ويسأل الرعية في خلافته من السلامة والعافية والتوفيق والكفاية ، والله المحمود . ولم أر موسماً كان أعم عافية وسلامة ، وأحسن هدياً ودعة ، وأكثر داعياً لأمر المؤمنين وولى عهده بطول الدقاء من موسم الناس في عامهم هذا بنعمة الله وفضله . أحببت الكتاب إلى أمير المؤمنين لمعرفة بعنايته وتطلعه إلى عمله ، ليسر به ، ويحمد الله عليه ويشكره ، فإنه يحب الشاكرين .

وسرعان ما يخلف المأمون الأمين ، وفي عصره تبلغ الكتابة الديوانية الذروة المنشودة ، فقد تكاثرت الكتاب البارعون وتكاثرت آثارهم ، واتضح فيها نزعة قوية إلى العناية بالجمال الفني والتدقيق في المعاني أشد التدقيق . وأول من تلقاه من هؤلاء الكتاب البارعين الفضل بن سهل وأخوه الحسن وزير المأمون ، وكان سهل مجوسياً وأسلم على يد يحيى البرمكي وأصبح من أتباعه ، فأحضر له ابنه الفضل والحسن ، فأعجب بهما يحيى وطلب إلى الفضل أن ينقل له كتاباً من الفارسية إلى العربية فأعجب بنقله وجودة عبارته ووصله بابنه جعفر ووصل الحسن بابنه الفضل^(٢) ، ولم يلبث جعفر أن ضم الفضل إلى المأمون ، فأسلم على يديه وغلب عليه بحصافة رأيه وسعة عقله وبلاغته ، حتى إذا أنفذه أبوه إلى مرو أصبح أمر المأمون كله بيده . ولما احتدم النزاع بينه وبين الأمين وخلعه من ولاية العهد قام على تدبير أموره خير قيام ، من تنظيم للجيش بقيادة طاهر بن الحسين وهرثة بن أعين ، ومن حسن سياسة ودقة تصرف لشئون المأمون في ولايته حتى تم له القضاء على أخيه وصارت له الخلافة . وقد عقد له المأمون في سنة ١٩٦ والنزاع بينه وبين أخيه على أشده على الشرق طولا وعرضاً ولقبه ذا الرياستين رياسة السيف ورياسة القلم والتدبير ، ويظهر أنه كانت فيه ميول شيعية فقد

وفي مواضع متفرقة والفخرى ص ١٦٥ وزهر الآداب ١٤/٢

(١) يبيل هنا : ينعم ويحسن .
(٢) انظر في ترجمة الفضل بن سهل كتب التاريخ والوزراء والكتاب للهمشباري ص ٢٢٩

دفع المأمون في سنة ٢٠١ إلى البيعة بولاية العهد من بعده لعلوي كان يعظمه المأمون ويبجله ويتخذة رفيقاً ، هو علي الرضا ، وكتب بذلك إلى الآفاق . فغضب آل العباسيون ببغداد ، وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة ، فعزم المأمون على المبادرة إلى بغداد ، وفي طريقه إليها قُتل الفضل بسـرّخس ، وفتك المأمون بقتلته ، ولم يلبث على الرضا أن توفّي بطوس ، وعادت ولاية العهد إلى العباسيين . وتروى للفضل كلمات كثيرة مأثورة ، ومما روى له من رسائله الرسالة التالية وقد وجهه بها مع جائزة منحها لبعض خاصته ، وفيها يقول^(١) :

« قد وجهت إليك بجائزة لا أعظمها تكثراً ، ولا أقللها تجبراً ، ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستشيك عليها ثناء » .

أما الحسن^(٢) أخوه فقد ولاه المأمون دواوين الخراج في سنة ١٩٦ للهجرة ، وفي سنة ١٩٩ جعله نائبه في بغداد ، فقدم إليها وفرق عمّاله على البلاد ، وبما مات أخوه الفضل اتخذة وزيراً له بعده ، حتى إذا تزوج ابنته بوران سنة ٢٠٧ طلب منه أن يعتزل الوزارة ، فأعفاه . وظل وافر الحرمة حتى توفي بسـرّخس سنة ٢٣٦ للهجرة . وكان لا يقلّ عن أخيه لسنّاً وبلاغة ، وله رسالة بديعة كتب بها إلى محمد بن سماعة قاضي بغداد في اختيار شخص يتولّى بعض أموره وقد وصف له فيها الخصال التي ينبغي أن يشتمل عليها ، وهي تجرى في هذه الصورة^(٣) :

« أما بعد فإني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير ذي عفة ونزاهة طعممة^(٤) ، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين في رأيه ، ولا بمطمعون في حسبه ، إن أوّمن على الأسرار قام بها ، وإن قلّد مهمماً من الأمور أجزأ^(٥) فيه ، له سينّ مع أدب ولسان ، تُقعدده الرزاة ، ويسكنه الحلم ، قد فرّ^(٦) عن ذكاء وفطنة ، وعصّ على قارحة^(٧) من الكمال ، تكفيه

(٣) الأمال للقال ٢٥٣/١ .

(٤) طعممة : مكسب .

(٥) أجزأ : أغنى وكفى .

(٦) فر : اختبر وجرب .

(٧) قارحة هنا : تجرّبه ناصجة .

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

٣٤٢/١٢ .

(٢) انظر في الحسن كتب التاريخ والفخرى في

الآداب السلطانية ص ١٦٧ والجهشيارى

ص ٢٣٠ وفي مواضع متفرقة وزيهر الآداب ٢٥/٤ .

اللحظة ، وتُرشد السكنة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام في أمورهم فحُمِدَ فيها . له أناةُ الوزراء ، وصولُ الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه بجرمان غده ، يكاد يسرقُ قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعا^(١) بما استنهض ، مستقلا^(٢) بما حمل . وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياحه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتيك .

وتلك الحصال في الواقع كانت حينئذ الحصال المنشودة فيمن يتولون أعمال الدواوين ، وخدمة الوزراء والخلفاء ، وهي ترينا ما كان يُطلَبُ في الكاتب من ثقافة واسعة ومن حصافة وتهذيب في الذوق وحلم وأناة وذكاء وقدرة على تصريف الأمور وإحسان للجواب ولياقة في الخطاب وبلاغة في الكلام بحيث يجذب القلوب والأسماع إليه ، بل بحيث يسرق أفئدة الرجال ويستولى على عقولهم استيلاء .

ومن الكتاب الذين طارت شهرتهم في دواوين المأمون أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة ، وستحدث عنهما في الفصل التالي ، وكان وراءهما كثير من لم يبلغوا مبلغهما في الشهرة ، منهم محمد بن يزيد^(٣) وكان بليغا مترسلا شاعراً « وله رسائل مجموعة^(٤) ، ومنهم محمد^(٥) بن سعيد ، ومنهم علي بن عبيدة الرياحي الكاتب وكان أديباً فصيحاً بليغا صنّف الكتب في الحكم والأمثال واختص^(٦) بالمأمون .

وفي مقدمة القواد والولاة الذين اشتهروا بالكتابة البليغة في عصر المأمون طاهر^(٧) بن الحسين ، وهو الذي قاد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين وحاصره ببغداد حتى ظفر به وقتله في سنة ١٩٨ للهجرة . وولاه المأمون خراسان والمشرق سنة ٢٠٥ ولم يلبث أن توفي سنة ٢٠٧ ، وله وصية طويلة كتب بها إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرقة سنة ٢٠٦ وهي أشبه بدستور للحكم القويم والحاكم الرشيد ، وقد وزعها بين ما يجب على الحاكم في دينه وخلقه وما يجب عليه في

(١) مضطلماً : ناهضاً .

(٢) مستقلاً : محتلاً في قوة .

(٣) الفهرست ص ١٧٩ .

(٤) الفهرست ص ١٨٢ .

(٥) النجوم الزاهرة ٢/٢٣١ وانظر

الفهرست ص ١٧٣ وزهر الآداب ٢/١٢٢ .

(٦) انظر في طاهر كتب التاريخ ووفيات

الأعيان لابن خلكان ١/٢٩٥ .

سيرته مع حاشيته وخاصته ومع الجند والرعية ، استهلها بحديثه عما ينبغي على ابنه من تقوى الله وطاعته والأخذ بسنة رسوله واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، ثم نصحه بالافتصاد في أموره وعدم الريبة في عماله مع المسألة عن شئونهم ، وأمره بالحياطة للرعية وإقامة حدود الله ، والنظر في استصلاح العامة وعمارة ديارهم وبلادهم وانتظام معاشهم ، كما أمره بتفقد الجند ورواتبهم والعناية بهم وبالقضاء الذى به يستقيم العدل والأمن ، والعناية بالخراج وعدم الشطط في تقديره ، والعناية بأمور الفقراء والمساكين بتعاهد ذوى البؤس منهم واتخاذ دور يأوى إليها فقراؤهم وأطباء يعالجون أسقامهم ، مع العمل بشريعة الله ، ومع تصفح الأعمال والعمّال وما ينبغي أن يكونوا عليه من العون في سياسة أمير المؤمنين ، ومن قوله في تضاعيفها^(١) :

« اعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنما سُمي أهل عملك رعيته لأنك راعيتهم وقسمتهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفومهم ومقدرتهم وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحتهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم في كؤور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالرياسة والعفاف ووسّع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسُن الأحدث في عملك واحترزت النَّصحة من رعيته وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الحصب في كؤورك ، فكثرت خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جنودك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك وكنيت محمود السياسة مرضى العدل . واستعمل الحزم في كل ما أردت ، وباشرو بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك وافترغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن اغدأه ورأ حوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يوهين ، فشغلك ذلك حتى تُعرض عنه ،

(١) تاريخ الطبرى ١٦٠/٧ وما بعدها .

فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبتدتك وأحكمت أمور سلطانك «
 وشاعت هذه الوصية في الناس ، فكتبوها وتدارسوها ، وسمع بها المؤمن ،
 فطلبها ، ولما قرأها قال ما أبى طاهر شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى
 والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة
 إلا وقد أحكمه وأوصى به . وأمر أن تكتب منها نسخٌ وترسل إلى جميع العمال
 في نواحي الأعمال .

وكان ابنه عبد الله^(١) بارع الآداب حسن الشعر ، وقد عني بتأديبه في
 صغره ، واختلافه إلى حلقات المحدثين والفقهاء ، وكانت فيه نزعة قوية إلى
 الفنون ، فلم يكتف بالشعر ، بل حذق بجانبه الموسيقى ، وروى أبو الفرج أصواتا
 تؤثر له . وقلده المأمون الأعمال الجليلة ، فجلّى فيها ، وكان أول ما قلده
 الجزيرة والرقّة ، فقمع المفسدين فيهما ، ثم ولاه مصر سنة إحدى عشرة ومائتين
 فلمّا ما كان بها من شعث ومهدّها ورتب شئونها ، حتى إذا انتظمت أمورها
 غادرها سنة اثنتى عشرة ومائتين مستحلفاً عليها عيسى بن يزيد الجلودى . وتوفى
 أخوه طلحة والى خراسان فولاه المأمون عليها سنة ٢١٣ وظلت له ولايتها حتى
 توفى سنة ٢٣٠ . وكان بحراً فياضاً ، كما كان كاتباً بارعاً ، وله أمان طريف^(٢)
 كتبه في ولايته على الجزيرة لنصر بن شيبث حين ضيّق عليه وعاذ بالأمان
 وطلبه ، ويقال إنه لم يطلبه إلا بعد أن كتب إليه وقد اعتصم منه بأحد الحصون^(٣)
 « اعتصامك بالقلال^(٤) ، قيّد عزمك عن القتال ، والتجاؤك إلى الحصون ،
 ليس ينجيك من المّتون . واستمّ بمفلت من أمير المؤمنين فيما فارس مطاعن
 أو راجل مستأمن » . فلما قرأ هذه الرسالة حصّره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث
 أن طلب الأمان وخرج من حصنه إلى عبد الله بن طاهر مستأمنًا صاغراً ، فوجّهه
 به إلى بغداد .

ونخصى إلى عصر المعتصم والوائق ، وفيه يتألق في الكتابة البليغة اسم ابن

(٢) تاريخ الطبري ١٧٣/٧

(٣) زهر الآداب ١٢٦/٤

(٤) القلال : أعلى الجبل .

(١) انظر في ترجمة عبد الله كتب التاريخ

والنجوم الزاهرة ١٩١/٢ وما بعدها ووفيات

الآعيان ٣٢٧/ .

الزيات وزيرهما ، وسنخصه بحديث مفصل في الفصل التالي ، ومن اشتهر ببلاغته حينئذ إبراهيم بن العباس الصولي ، وقد عمل في دواوين المأمون ووزيره الحسن بن سهل ، وتولى الأهواز حيناً من الزمن وعزله عنها ابن الزيات ، فوجهه إليه باستعطافات طريفة ، ونحن نؤخر الحديث عنه إلى العصر العباسي الثاني ، إذ تولى ديوان الرسائل فيه للمتوكل وكتب عنه كثيراً ، مما يجعله أحق بوضعه فيه . وقد تولى ابن الزيات وزارة المعتصم وعلى ديوان الرسائل عبد الله بن الحسن الأصبهاني ويروي صاحب^(١) الأغاني أنه كتب عن المعتصم إلى قائده وواليه على أرمينية خالد ابن يزيد بن مزيد :

« إن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك في غير فحْم ، ويخاطب امرءاً غير ذي فهم » .

فقال محمد بن عبد الملك الزيات : هذا كلام ساقط سخيف جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزرق كأنه حدّ آد . وأبطل الكتاب . ثم كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر :

« وأنت تجرى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لا تسعى بنقْصان ، ولا تميل برُجْحان » فقال عبد الله الأصبهاني : الحمد لله ! قد أظهر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه إلى صناعته من التجارة^(٢) ، بذكره ربح السلع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال . فضحك المعتصم وقال : ما أسرع ما انتصف الأصبهاني من محمد ، وحققها عليه ابن الزيات حتى نكبه » .

واستخدم ابن الزيات بعده على ديوان الرسائل الحسن^(٣) بن وهب ، وهو من بيت قديم في الكتابة إذ خدم أجداده في دواوين الأمويين ، جداً بعد جد ، حتى إذا آلت الخلافة إلى العباسيين تولى أجداده يعملون في دواوينهم . وقد كتب جده سعيد وأبوه وهب للبرامكة ، وعمل وهب في دواوين الفضل بن سهل

(٣) انظر في أخبار الحسن بن وهب وترجمته الفهرست ص ١٧٧ وترجمته أخيه سليمان في ابن خلكان والأغاني ٦٧/٢٠ .

(١) انظر الأغاني ٤٩/٢٠ .
(٢) يشير إلى حرفة أبيه إذ كان تاجراً بالكرخ .

وأخيه الحسن وتوفى قبل دخول المأمون ببغداد ، وعمل ابنه سليمان في دواوين المأمون . ولا نشك في أن الحسن أخاه هو الآخر اشتغل في تلك الدواوين ، وعرف ابن الزيات حذقه في الكتابة فأسند إليه ديوان الرسائل ، ونهض به خير نهوض ، ويقول ابن النديم : « كان شاعراً مترسلاً فصيحاً وأحد ظرفاء الكتاب ، وله ديوان كتاب رسائله » . وقد عاش شطراً في العصر العباسي الثاني ، ولكنه أبعد عن الديوان منذ نكبة ابن الزيات لأول عصر المتوكل ، ولذلك لم نُؤخره إلى هذا العصر ، فنشاطه الكتابي إنما كان في وزارة ابن الزيات وعصر المعتصم والواثق . ومع ذلك ليس بين أيدينا رسائل ديوانية له ، سوى ما تبادلته مع ابن الزيات في المودة والتزاور والشكر ، وهما تارة يتكاتبان شعراً وتارة يتكاتبان نثراً ، وله بجانب ذلك بعض رسائل في التعزية ، ونحن نسوق له رسالة في الشكر لندل بها على مقدار بلاغته وحسن بيانه ، وهي تجرى على هذا النمط ^(١) :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أفدته إياها ، فإن شكركى لك على مهجة أحبيتها وحشاشة ^(٢) أبقيتها ، ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد يُنتهى إليه ، ومدى يوقف عنده ، وغاية من الشكري سمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصف ، وطالت الشكر وتجاوزت كل قدر ، وأنت من وراء كل غاية . رددت عنا كيد العدو ، وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنف كريم ، فكيف يشكر الشاكر وأنتى يبلغ جهد المجتهد » .

ولم نتحدث حتى الآن عن التوقيعات ، وهي عبارات موجزة بليغة ، تعود ملك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكاواهم ، وحكاياهم خلفاء بنى العباس ووزرائهم في هذا الصنيع ، وكانت تشيع في الناس ويكتبها الكتاب ويتحفظونها ، وقد مماوا الشكاوى والظلمات بالقصص لما تحكى من قصة الشاكي وظلامته ، وسموها بالبرقاع تشبيهاً لها برقاع الثياب . ودارت في الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أثرت لكل خليفة عباسي وكل وزير خطير ، من ذلك توقيع السفاح في كتاب جماعة من

(٢) الحشاشة : بقية الروح .

(١) المقد الفريد ٤/٢٣٣ .

بطانته يشكون احتباس أرزاقهم : « من صبر في الشدة شارك في النعمة ^(١) ،
وتوقيع المنصور على شكوى لأهل الكوفة من عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم ^(٢) »
وتوقيع المهدي لشاعر : « أسرفت في مديحك فقصرنا في حباتك ^(٣) » وتوقيع
الرشيد على رسالة لوالى خراسان : « داو جرحك لا يتسع ^(٤) » وتوقيع المأمون على
قصة متظلم : « ليس بين الحق والباطل قرابة ^(٥) » .

ولعل وزيراً لم يبرع في التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكي « وكان إذا
وَقَعَ نُسِخَتْ توقيعاته وتدورست بلاغاته » وحكى على بن عيسى بن يزدانيروذ
أنه جلس للمظالم فوقَّع في ألف قصة ونيف ، ثم أُخرجت فعُرِضت على العمال
والقضاة والكتّاب وكتّاب الدواوين فما وُجد فيها شيء مكرر ولا شيء يخالف
الحق ^(٦) » وقال ابن خلدون : « كان جعفر بن يحيى يوقِّع في القصص بين يدي
الرشيد ويرى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها
للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها
بدينار ^(٧) » وما رواه له الجهشيارى من توقيعاته ^(٨) توقيعه على رقعة لمحبوس متظلم
من حبسه : « العدوان أو بتمه ، والتوبة تُتُطْلَقه » وتوقيعه على كتاب اعلى بن عيسى
ابن ماهان يعتذر فيه عن أشياء بلغته عنه : « حُصِبَ إلينا الوفاء الذي أبغضته ،
وبُغِضَ الغدر الذي أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت
غَدراتها ووقعاتها عياناً وإخباراً » . واشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته
البليلة المحكمة ، فن ذلك توقيعه على قصة مظلوم « كفى بالله للمظلوم ناصراً ^(٩) »
وتوقيعه على كتاب لتميم بن خزيمه بن خازم : « الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها
والصنائع باستدامتها ، وإلى الغاية جرّى الجواد ، فهناك كشفت الخبرة قناع
الشك فحمّد السابق وُدْمَ الساقط ^(١٠) » . وكثيراً ما كانوا يوقعون بآية من
الذكر الحكيم أو بيت من الشعر أو بمثل من الأمثال .

(٦) الجهشيارى ص ٢٠٤ .
(٧) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .
(٨) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(٩) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(١٠) الجهشيارى ص ٣٠٧ .

(١) المقدم الفريد ٢١١/٤ .
(٢) المقدم الفريد ٢١٢/٤ .
(٣) المقدم الفريد ٢١٣/٤ .
(٤) المقدم الفريد ٢١٣/٤ .
(٥) المقدم الفريد ٢١٥/٤ .

الرسائل الإخوانية والأدبية

نمت الرسائل الإخوانية في هذا العصر نمواً واسعاً ، ونقصد الرسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنئة واستمناح ورتاء أو تعزية ، وكانت هذه العواطف تؤدَّى في العصر الأموي بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر ، أما في هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخم ، وأتاح له ذلك أمران : أولاً ظهور طبقة ممتازة من الكتّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يُعَسِّنُونَ بتحبير كلامهم وتجويده وحشده كل ما يمكن فيه من عناية فنية ، على نحو ما مر بنا آنفاً . والأمر الثاني مرونة النثر ويُسر تعابيره وقدرته على تصوير المعاني بجميع تفاريعها قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية . وقد طوَّع هؤلاء الكتّاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ومرنوها على أن تحمل كثيراً من المعاني الجديدة غير المألوفة .

وبذلك كله ثبت النثر للشعر في التعبير عن العواطف التي طالما عبَّر عنها ، بل لقد أظهر في ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء ، ومن أجل ذلك رأينا منهم كثيرين يتخذون النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم على نحو ما سئرى عند العتّابى وأبي العتاهية ، وكانهم وجدوا فيه يسراً في التعبير وفسحة لعرض بعض المعاني التي يلمون بها بجميع دقائقها مما لا يستطيع الشعر أداءه .

وتدور في كتب الأدب رسائل إخوانية كثيرة مما دبتَّه كتّاب الدواوين والشعراء وغيرهم من الأدباء ، فقد تعاور عليها كثيرون ، وكل منهم يتأق فيما يكتب منها ويحاول الإطراف بمعانيه وصياغاته وما يبثُّ فيها من مهارته الفنية . ومن كان يُعَسِّنِي بها عناية واسعة في أوائل هذا العصر ابن المقفع وسنفرده بعض الصحف في الفصل التالي ، ومنهم محمد بن زياد الحارثي ، وهو أخو يحيى بن

زياد الحارثي رفيق مطيع بن إياس وجليله ، وفيه يقول ابن النديم « شاعر مترسل يبلغ (١) » وله في الشكر (٢) :

« قد يجب على من يتقلب في ظل كرامتك ، ويأوى إلى كنف نعمتك ، أن يقول بما هو أولى ويخبر عما هو به مرتَهَنٌ من شكر بلائك (٣) ، وحق نعمتك ، فنحن الذين سبقت نعمتك عليهم ، وعظمت منتك لديهم ، فيما أبلت وأوليت من جميل رأيك ، وحسُن أثرك ، بعطفك وتحسُّنك ، واستخلاصك إياه مِقَّةً وأنسا... في أياد من أياديك عظمت فلا تُجَحِّدُ ، ونعم من نعمك شهرت فلا تنكر ، ولا يُحْصَى عددها وإن اجتهدنا في حفظها ، ولا نبليغ في شكرها ، وإن دأبنا في بلوغ تاديتي ، فقد اعتقدتها منة علينا ، وبدأ عندنا ، فنحن لك صنيعا ما بقينا وبني الحكف منا » .

وكانت ترجمة ابن المقفع للأدب الكبير وما جاء في كتاباته من حديث عن الإخاء والمودة مادة غزيرة للكتاب كى يستمدوا منها كل ما يريدون من تصوير الأخوة الحققة والصداقة الصادقة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه رسالة لجبل بن يزيد إلى بعض إخوانه وهي تجرى على هذا النمط (٤) :

« اعلم أني إليك مشوق وأن صلة الإخوان كرم ، وخير الصلات ما لم يكن لها وجه إلا الرجاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ، فإن الذي يكتب لإخوانه على حال الرغبة . . . إن أحب مال به إلى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذي يكتب لإخوانه على حال الضرورة فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة من الناس على القطيعة الشنءاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذي لا مودة له قد يصل ذلك في تلك القطيعة بأهل البلاء . والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهد على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق إلى المحادثة بالكتاب حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ولا توضع منك الرغبة في الإطماع . إياك أن تعتل بالأشغال أن كنت في خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الإخوان أعظم الخاص بك خاصة ،

(٣) البلاء هنا : الإحسان .

(٤) جمهرة رسائل العرب ١٣٦/٣ .

(١) الفهرست ص ١٧١ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٧٩/٣ .

وإنما أمرنا في كل هذا كأمرك في الذي تستغنى به من خاصتك تلك التي لنا ، فإن لنا مالك ، وهذه التي لنا لك ، أليس ما سرنا سرَّك ، والله يوفقنا وإياك .
 وواضح أنه يتسع في تصوير صحة الإخاء ، وهو يجعل المتودِّدين الملحقين في الأخوة أصنافا ، فمنهم من يطلبها للرغبة ، وإخاؤه لذلك مشوب ، ومنهم من يطلبها للضرورة وإخاؤه بذلك موقوت ، بحيث إذا ألمَّ بصاحبه مكروه قطعه القطيعة الشنيعة . ويقول إن إخاءه ليس من هذين الضربين المقوتين ، بل هو إخاء سليم صحيح ، ويدعوه أن لا يعتل بشغل عنه بخاصة نفسه وانصرافه إلى بعض شئونه فالإخاء الصادق أخصُّ ما ينبغي له أن يشغل صاحبه ويصرفه عن كل شيء سواه .

وما أكثروا فيه التعازي ، وعادة يتحدثون فيها عن ثواب المنكوب ببعض أهله على حسن صبره وما ينبغي عليه من التسليم لأمر الله والرضا بقضائه ، وقد يعرضون لدم الدنيا وأنها دائماً تكدر الصفاء وتنغص السرور ، ويروى أن المهدي جزع جزعا شديدا حين ماتت ابنته البانوقة ، فأكثر الناس من تعازيه ، وكان ممن عزاه إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي بهذه الرسالة الموجزة (١) :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ عرف حقَّ الله عليه فيما أخذ منه من عظم حقِّ الله عليه فيما أتى له . واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك ، وأن الباقي بعدك هو المآجور فيك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يُعافون منه . »

وكثيراً ما تعاتبوا عتاباً رقيقاً ، وقد يعنفون في عتابهم ، ولكن عنف المتحضر المهذب الذي قد يمسّ ولكنه لا يتخذش ، ومن رسائلهم الطريفة في العتاب التي تدل بوضوح على دقة الحس ورهافة الشعور رسالة يوسف بن صبيح إلى محمد بن زياد الحارثي ، وفيها يقول (٢) :

« حفظك الله وحاطك ، رأيتك - أكرمك الله - في خسر جنتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبتك ، وإبلاغنا خبرك ، وقطعتنا قطع ذي السلوة أو أخي المسلة (٣) ،

حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا ، وإلى البعد منا تَوَّاقا ، فوقع بُعْدُكَ بحيث تحبّ من جهتين : إحداهما حلاوة الولاية ، والأخرى لذة الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجيتاه فاطعناك مجملين ، أو لبسناك على يقين . . وما أدري ما أقول في اختيارك ترك الكتب المحدثّة عن العتّب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثة الحضور ، على تنائي الدور ، والقلوب بها مشاهدة ، وإن كانت الأبدان متباعدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لقد بما عزّ الوفاء ، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا تقيم بعده على قطيعة ولا جفاء ، ولا تتوهمن أني أردت ، إعانتك بإعتابي ، ولأن أزرى عليك بكتابي ، فإن وصلت فشكور ، وإن قطعت فمعدور ، والسلام »

وتأثقتُ يوسف وتنميقة ودقته في التعبير واضح في تلك الرسالة ، وقد تفتنّ الكتاب طويلا حينئذ في صور الاعتذار ، ومن رسالة لمحمد بن الليث في اعتذاره لشخص ظنّ به بعض الظنون الخاطئة دون تبين ولا روية^(١) :

« كيف يسعك أن تأخذني بظن أو كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك أخذى ولا عقابي عليه ، وأو كانت العقوبة على الذنب الكامن في سُوِّدَاء القلب واسعة لك في حكم الربّ لكان فيما حجبت الغيوب عن العمل ما ينتقل في القلوب التي لا تثبت على حال ، إلا ريثما يتبعها انتقال ما يدعوك إلى أن تمسك عني ، وتقف ، حتى تعرف أيمضي رأى أم ينصرف » .

وهو يشير إلى معنى نفسى دقيق ، وهو أن الخواطر التي تلم بالإنسان لا تثبت على حال ، ومن أجل ذلك كان الإنسان ينتقل بين لحظات وخواطر متناقضة ، ولا يصح أخذ الإنسان بخاطر إلا إذا ثبت فيه وعاش طويلا ، فقد يمر به خاطر سريع ويمضي دون أوبة ولا رجعة . ولعل رسالة استعطف لم تشتهر في هذا العصر كما اشتهرت رسالة إبراهيم^(٢) بن سيبابة الشاعر التي استعطف بها يحيى بن خالد البرمكي ، وكان قد أنكر منه شيئا ، فكتب إليه يترضاه على هذه الشاكلة^(٣) .

٤٠٥/١ والوزراء والكتاب للجهمي ص

٢٠٣ .

(٣) البيان والتبيين ٢١٥/٣ .

(١) جمهرة رسائل العرب ١٨٥/٣ .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبع

دار الكتب) ٨٨/١٢ وانظر البيان والتبيين

« للأصيد^(١) الجواد ، الوارى الزناد^(٢) ، الماجد الأجداد ، الوزير القاضل ،
الأشم^(٣) الباذل ، اللباب الحلاحيل^(٤) ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير
فابنى أحمد الله ذا العزة القدير ، إليك وإلى الصغير والكبير ، بأرحمة العامة ،
والبركة الثامة . أما بعد فاغنم^(٥) واسلم ، واعلم إن كنت تعلم^(٦) ، أنه من يرحم
يُرحم ، ومن يحرم يُحرم ، ومن يحسن يغم ، ومن يصنع المعروف لا يعدم^(٧) ،
وقد سبق إلى ، تغضبك على ، واطراحك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم :
له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، فلست بحى صحيح ، ولا بميت مستريح ،
فقررت بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرعتُ بي حثًا إليك خطائى فأناختُ بمُذنبِ ذى رجاء^(٨)
راغبٍ راهبٍ إليك يُرجى منك عفواً عنه وفضلَ عطاء
ولعمري ما من أصرٍّ ومن تا بَ مُقرًّا بذنبه يسواه

فإن - رأيت - أراك الله ما تحب ، وأبقاك فى خير - أن لا تزهد فيما ترى
من تضرعى ، وتخشعى ، وتذللى ، وتضعفى ، فإن ذلك ليس منى بنحيزة^(٧) ،
ولا طبيعة ، ولا على وجه تصيد تصنع ، وتخدع^(٨) ، ولكنه تذلل ، وتخشع ،
وتضرع من غير ضارع^(٩) ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن
النضرع له عز ورفعة وشرف .

وما إن تلاها يحيى حتى عفا عن جرمه ، ورضى عنه ووصله . ويقول الجاحظ
إن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون هذه الرسالة ، إعجاباً ببلاغتها ، وهى بلاغة
ترد إلى ما أجرى فيها ابن سبابة من هذا السجع الرشيق الذى يدل بوضوح على
أن العبارات كانت طبيعة على لسانه ، بحيث يتصرف فيها كما يريد دون أن

(٦) حثا : مصرة . خطائى : جمع خطوة
أناخت : بركت وأقامت .
(٧) نحيزة : طبيعة .
(٨) تخدع : خداع .
(٩) ضارع : ذليل .

(١) الأصيد : السيد الرافع رأسه أنفة وشما .
(٢) وارى الزناد : أصله مخرج النار منه ، وهو
كناية عن مضاه العزيمة .
(٣) الأشم : الملوأ أنفة .
(٤) الحلاحيل : السيد الشجاع ذو المروءة .
(٥) لا يعدم : يريد لا يعدم مكافأته .

يستعصى عليه منها شيء ، حتى مع ما اختاره لها من ممرّات السجع ودروبه الضيقة .

ومن الشعراء الذين جمعوا بين براعتهم في الشعر والكتابة الإخوانية العتّابي ، وقد ترجمنا له بين شعراء العصر النابيهين وكانت قدرته في الكتابة لا تقل عن قدرته في الشعر ، وكان يعمد فيهما جميعاً إلى الإيجاز وأن يروع السامع بمعانيه كما يروعه بأساليبه ، وبما يصور ذلك في كتابته ما كتب به إلى صديق أنتجعه في أيام شحيحة مجذبة ، على هذه الشاكلة (١) .

« أما بعد أطل الله بقاءك وجعله يمتدُّ بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها ، وتسيرح القلوب إليها ، وكنا نعفيها من النُّجعة (٢) استمّاما لزهرتها ، وشفقة على نخضرتها ، وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنةٌ كانت عندي قطعة من سِنيني يوسف ، اشتدَّ علينا كسالبها (٣) ، وغابت قِطَّتُها (٤) ، وكذبنا غيومها ، وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانتجعتك (٥) ، وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمي بأنك موضع الرائد (٦) ، وأنتك تُغَطِّي عين الحاسد . والله يعلم أني ما أعدُّك إلا في حومة (٧) الأهل . واعلم أن الكريم إذا استحيى من إعطاء التليل ولم يمكنه الكثير لم يُعرَف جوده ولم تظهر همته ، وأنا أقول في ذلك :

إذا تکرَّهتَ من بذل القليل ولم تقدرْ على سَعَةٍ لم يظهر الجودُ
بُتَّ النَّوَالِ ولا تمنعك قِلَّتُهُ فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودٌ»

ويقال إنه بلغ من تأثيره في صديقه حين قرأ هذه الرسالة الرقيقة أن شاطره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه . وعلى نحو ما كان يقصد في أشعاره إلى المعاني الدقيقة الطريفة بصوغها في مقطوعات قلما تجاوزت بيتين

(١) الأمايل ١٣٧/٢ .
(٢) النجمة : الاستمناح ، وأصلها طلب الكاذب .
(٣) كلبها : سوءها وقحطها .
(٤) كناية عن الجذب ، فالقطة لا تجرد ما تأكل .
(٥) انتجعتك : طلبت نائلك ومعرفك .
(٦) الرائد : الذي يتقدم القوم في طلب المشب .
(٧) حومة : موضع .

كان يصنع برسائله ، فهو يصوغها غالباً في عبارات قليلة قد لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة ، ولكنها مع قلتها حملت من المعاني والصور النادرة ما يجعلها آية من آيات البلاغة العباسية ، فمن ذلك ما كتب به إلى بعض أصحاب السلطان^(١) .

« أما بعد فإن سحائب وعدك قد أبرقت ، فليكن وبَلْمُها^(٢) سالماً من علل المَطْل ، والسلام » .

وهي صورة طريفة عرف كيف يستتمها وكيف يرسمها في عبارات موجزة رسماً يبهز قارئها ويجعله يكرر النظر فيها . ومن ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة حادثة^(٣) :

« لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوكك عنى لم أبذل وجه الرغبة إليك ، ولم أتجشّم مرارة تماديك ، ولكن استخففتنا صبابتنا ، فاحتملنا قسوتك ، لعظيم قدر مودتك ، وأنت أحتق من اقتصص^٤ لصلتنا من جفائه ، وأشوقنا من إبطائه » .

واتسع استخدام الكتّاب للنثر في كل فنون الشعر ، حتى فن الهجاء ، بل إن بعض الشعراء كانوا يستخدمونه ويؤثرونه أحياناً على الشعر كما رأينا عند العتّابي وابن سيّابة ، وكانوا يسلكون فيما يكتبون أحياناً بعض أبيات الشعر من نظمهم أو نظم سواهم ، وقد ينثرون معناها قبلها ، على نحو ما مرّ بنا آنفاً في رسالة العتّابي . ومن خير ما يصور ذلك رسالة^٥ لأبى العتاهية في هجاء الفضل بن معن بن زائدة ، وكان قد استرفده وطلب نواله ببعض شعره ، فردّه ردّاً غير جميل ، مما أغضبه وجعله يكتب إليه بهذه الرسالة^(٤) :

« أما بعد فإني توسلت إليك في طلب نائلك^(٥) بأسباب الأمل وذرائع الحمد فراراً من الفقر ورجاءً للغنى ، فازددتُ بهما بُعداً مما فيه تقربتُ ، وقرباً مما فيه تبعّدتُ . وقد قسمت اللائمة^(٦) بينى وبينك ، لأني أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعى ، أمّرتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم ، ونهيت عن منّع أهل الرغبة ، ففنتهم ، وفي ذلك أقول :

(٤) العقد الفريد ٤/٢٣٦ .
 (٥) النائل : الرغد والعتاء .
 (٦) اللائمة : اللوم .

(١) العقد الفريد ١/٢٥٠ .
 (٢) الويل : المطر الغزير .
 (٣) زهر الآداب ٤/١٢٢ .

فررتُ من الفقر الذي هو مُدرَكِي إلى بُخْلِ محظورِ النَّوَالِ مُنوعِ
فَأَعْقَبَنِي الحِرْمَانَ غِيبٌ مطامِعِي كذلك من تلقاه غير قنوعِ
وغيرُ بديعٍ مَنَعُ ذِي البخلِ مالَهُ كما بَدَلُ أَهْلِ الفضلِ غيرُ بديعِ
إِذَا أَنْتِ كَشَفْتِ الرِّجَالَ وَجَدْتَهُم لأَعْرَاضَهُم من حَافِظِ ومُذِيعِ ١

ومن يقرن هذه الأبيات الأربعة إلى ما قبلها من النثر يجده أشد لذعا ، وأكثر مرونة على أداء الهجاء الذي كان يريده أبو العتاهية ، ومرّاً بنا أن الشعر كان يسيل على لسانه سيلانا لم يعرف لشاعر في عصره وأنه لم يكن يجد فيه مشقة ولا جهدا ، ومع ذلك فهو لا ينهض عنده بالمعاني العاطفية التي يستطيع النثر أداءها في يسر وسهولة ، مما يدل دلالة واضحة ، على أنه رقى في هذا العصر رقيا واسعاً ، حتى في المجال العاطفي الخالص الذي طالما مرت اللغة على أدائه شعراً ، وهو رقى تتزاج فيه اللذة العقلية بما استنبط الكتاب من دقائق المعاني ، واللذة الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور وما بثوا في ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ ومن جمال التقابل بين العبارات والجمل ، حتى ليحاول بعض الكتاب أن يسجع في كلامه ، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة .

ومما أكثر الكتاب من الكتابة فيه الدعوة إلى الزيارة لقضاء بعض الوقت في اللهو أو في الشراب أو في سماع المغنين والقيان أو في المسامرة المستحبة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه دعوة الحسن بن سهل لبعض أصدقائه كي يصطحب^(١) معه في يوم دَجْنٍ غامت فيه السماء ولم تمطر^(٢) :

« أما ترى تكافؤَ الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قولٌ كثيرٌ :

وإني وتَهَيَّأِي بعزّة بعدما تَخَلَّيْتُ مما بيننا وتَخَلَّتِ
لكالمُرْتَجَى ظلَّ الغمامة كلما تبوأَ منها للمَقِيلِ اضمحلَّت^(٣)

(١) يصطحب . من الصبوح وهو الشرب في الصباح .
(٢) المقييل : النوم وقت الفيولة بعد ارتفاع الضحى .

(٣) زهر الآداب ١٤٦/٢ .

وما أصبحتُ أمنيئتي إلا في لقاءك ، فليت حجاب النأي دُمتك بيني وبينك ،
ورقمتي هذه وقد دارت زُجاجات أوقعت بعقلي ولم تتحيته ، وبعثت نشاط حركتي
للكتاب ، فأريك في إمطاري سروراً بساراً خبرك ، إذ حرمت السرور بمطر هذا
اليوم موفيقاً إن شاء الله .

وعلى نحو ما أكثروا في طلب الزيارة من الكتب والرسائل أكثروا منها أيضاً
مع الهدايا التي كانوا يرسلون بها إلى أصدقائهم أو إلى بعض الوزراء وأصحاب
السلطان ، وكانوا يختارون لها عادة مناسبة مثل عيد من الأعياد أو ختان بعض
الأولاد ، من ذلك ما يروى من أن يحيى البرمكي عزم على ختان أحد أولاده ،
فأهدى إليه وجوه الدولة كل منهم بحسب حاله وقدرته ، وتظرف بعض من كانوا
من أسبابه ، للدلالة على قصور همته ، فلأ وعاء من آدمٍ مِلْحاً مطيباً ووعاء
ثانياً سَعْدًا^(١) معطراً وكتب معهما هذه الرقعة^(٢) :

« لو تمت الإرادة ، لأسعفت العادة ، ولو ساعدت القدرة ، على بلوغ
النعمة ، لتقدمت السابقين إلى خدمتك ، وأتعبت المجتهدين في كرامتك ، لكن
قعدت بي القدرة ، عن مساواة أهل النعمة ، وقصرت بي الجِدَّة^(٣) عن مباحة
أهل المُكْنَةِ^(٤) ، وخشيت أن تُطَوِّى صحيفة البرِّ ، وليس لي فيها ذكر ،
فأنفذت المُفْتَتِحَ بِبَيْمَنِهِ وبركته وهو المِلْحُ ، والمُخْتَسَمَ بطيبه ونظافته وهو
السُّعْدُ ، باسطة يد المعذرة ، صابراً على ألم التقصير ، متجرعاً غصص الاقتصار
على اليسير ، والقائمُ بعذري في ذلك : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا
على الذين لا يجدون ما ينفقون حرجٌ) . والمُهْدَى ضارع في الامتنان عليه بقبول
معذرتي ، والإحسان إليه بالإعراض عن جراته . »

وعرضت الهدية على يحيى ، فلما قرأ الرقعة أمر أن يُفَسَّرَ الإِنَاءَانِ ويملاً
أحدهما دنانير والآخر دراهم ، إعجاباً بتلطف صاحبهما وبلاغته وحسن بيانه .
وكانت أكثر هداياهم طيباً وعطراً وتحفناً ثمينة ، وربما أهدوا السيوف والخيل ،
ويروى أن عبد الله بن طاهر أهدى المأمون فرساً وكتب إليه^(٥) :

(١) السد : نبت طيب الرائحة .
(٢) غرر الخصائص الواضحة للوطواط
(٣) الجدة : النفي .
(٤) المكنة : الاستطاعة والقدرة .
(٥) زهر الآداب ١٧/٢ .
ص ٤٤٨ .

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس ، يلحق الأرناب في الصَّعداء^(١) ، ويجاور الظُّبَاءَ في الاستواء ، ويسبق في الحُدُور^(٢) جَرَى الماء ، فهو كما قال تأبَّط شَرًّا :

ويسبقُ وقدَ الرِّيحِ من حيثَ يَنْتَحِي بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المتدارِكِ^(٣) »

وأكثرُوا من التهاني مع كل مناسبة ، فهم يهتنون الخلفاء حين جلوسهم على أريكة الخلافة ، وهم يهتنون الوزراء حين استيلائهم على مقاليد الحكم ، وهم يهتنون بالزواج وعقد القران ، وهم يهتنون بإنجاب الأولاد ، وهم يهتنون بحكم الولايات ، وهم يهتنون بنعمة الحج وقضاء مناسكه ، وهم يهتنون بالظفر على الأعداء ، ولإبراهيم بن المهدي من رسالة هنا فيها المعتمم بخروجه عن أرض الروم بعد فتحه لعمورية^(٤) :

« الحمد لله الذي تَمَّ لأمر المؤمنين غزوته ، فأذللَّ بها رقاب المشركين وشَقَّيَ بها صدور قوم مؤمنين ، ثم سهل الله له الأوبَّةَ سالماً غانماً . . . وليَهْنِئْهُ ما كتب الله له مما أحصاه فلا ينسأه ، لَيَقْفِه به موقفاً يرضاه ، فإنه عزَّ وجلَّ يقول : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وَعَدَّ عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) . فطوى الله لأمر المؤمنين نازح البُعْدِ بَرًّا وَبِحَرًّا ، ووقاه وَصَبَّ السفر سهلاً ووعراً ، وحاطه بحراسته كالثا ، ودافع عنه بحفظه راعياً ، حتى يؤدِّيَه إلى المحل من داره ، والوطن من قراره ، وجزاه عن الإسلام خاصة ورعيته كافة . »

وعلى هذا النحو لم يترك الكتاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومظنين تارة أخرى ، ومحاولين بكل ما استطاعوا أن يُظهِروا القارئ على براعتهم وتفنتهم في الأداء ، وقد مضوا مثل الشعراء يعرضون لوصف

بمنخرق: يمتنع . شده : عدوه ، المتدارك : المتتابع .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٨ / ٤ .

(١) الصَّعداء : الصمود الشاق .

(٢) الحُدُور : الجرى السريع .

(٣) وقد الرِّيح : جباعاته ، ينتحى : يقصد .

الطبيعة أحياناً ، ولجليل بن يزيد رسالة جيدة في وصف الأمطار عقب سنة
مجدبة أهلكت الحُرث والضرع حتى استيأس الناس ، وهي تمضي على هذه
الشاكلة (١) :

« عادت لنا من الله عائدةُ رحمةٍ بيوتى^(٢) مطرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا
من المطر ، وإبلا جوداً^(٣) ، لا يتفتر غزيره ، ولا يرعوى جوده إلا إلى ديمة^(٤)
عن ديمة ، يتراخى إليها يسيراً ريثما تعود ، فأقامت علينا سماؤه مستهلهةً^(٥)
بلدك إلى غروب الشمس ، ثم انقطع مطرها بسكون من الريح فتور من القر^(٦)
وقضل من الله عظيم ينشر به رحمته ، ويبسط به رزقه ، فأسبغ النعمة ، وأوسع
البركة ، وأوثق^(٧) بحمد الله معارف الخصب . والله محمود على آلائه^(٨) ،
مشكور على بلائه^(٩) ، وما أنزل من سقياه ورحمته بعد الذي أقبلت به السنةُ
البرية^(١٠) ، والقحطُ وعدم الأمطار ، وشدة ما بلغ الناس من القنوط^(١١) وسوء
الظنون . »

ومرّ بنا في حديثنا عن الشعر أن الشعراء كانوا أحياناً يصفون روعة شعرهم
وقدرتهم على استنباط الدرر والآلآء الشعرية ، ومعروف أن من أكثرهم ترديداً
لهذا الوصف أبا تمام ، ونرى صديقه الحسن بن وهب يكتب إليه رسالة بديعة
يجعل موضوعها وصف شعره الرائع الذي كان يخصه أحياناً ببعض منظوماته
مشيداً ببلاغته ، على نحو ما أشاد ببلاغة ابن الزيات في وصفه لقلمه المشهور ،
وكان الحسن بن وهب رأى أن يجاريه في هذا المضمار نراً لا شعراً ، فكتب إليه
هذه الرسالة (١٢) :

« أنت - حفظك الله - تحتذى من البيان في النظام ، مثل ما يقصد
بحرّ من الدرر في الأفهام ، والفضل لك - أعزك الله - إذ كنت تأتي به في
غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، في منظوم الأشعار ، فتسحل متعقده ،

- | | |
|---|-----------------------------|
| (١) جمهرة رسائل العرب ١٣٧/٣ . | (٧) أوثق هنا : أنبت وأعشب . |
| (٢) ول المطر : الذي يسقط دفعة بعد دفعة . | (٨) الآلاء : النعم . |
| (٣) الجود : المطر الغزير . | (٩) البلاء هنا : الإحسان . |
| (٤) الديمة : المطر المنهمر بلون برق ولا رعد . | (١٠) البرية : الهدية . |
| (٥) مستهلهة : منصبة . | (١١) القنوط : اليأس . |
| (٦) القر : البرد . | (١٢) زهر الآداب ٢٤٨/٣ . |

وتربط متشردة ، وتنظم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصّله في حدوده ، وتخرجه في قيوده . ثم لا تأتي به مهما اقتبسته مُشْتَرَكًا فيلبس ، ولا متعقداً فيطول ، ولا متكلفا فيحول ، فهو كالمعجزة تُضْرَبُ بها الأمثال ، ويُشْرَحُ فيها المقال ، فلا أعدمنا الله هداياك واردة وفرائدك وافدة .

وهذه الرسائل الإخوانية التي كانوا يصورون بها عواطفهم ومشاعرهم من ثناء أو هجاء أو استمناح أو استعطاف أو عتاب أو عزاء أو تهنئة أو تهادٍ دفعهم تفننهم في بعضها إلى أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهي التي تناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير ، حتى لا تسقط في مهاوى الشر . ومن خير ما يصور ذلك رسالة يحيى بن زياد التي ردّها بها على رسالة لابن المقفع طلب إليه فيها أن تتعدّد بينهما أسباب الأخوة والوداد ، وهو يستهلها على هذه الشاكلة (١) :

« أما بعد فإننا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله في تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذى البُعدّة ومشاركته بين ذوى الأرحام في القرُبة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نسبته ، فنسبنا الإخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى البسر ، فوجدناه محتويا على الكرم والنجدة والصدق والحياء والنجابة والزكّانة (٢) وسائر ما لا يأتي عليه العدد من المحامد . ثم انحدرنا فيما أصعدنا فيه من هذا النسب ، فعدنا إلى الإخاء ، فوجدناه لا يقوم به إلا من هذه الخصال كلها أخلاقه . ولما استرجب الإخاء مسالك المحمّدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع في صواب التروى وإحكام التقدير ، وعلمنا أن الاحتباس به أحسن من الندم بعد بذله ، واستوجب - إذ كان جماع المحامد - أن نتخير له محامله التي يُحْمَلُ عليها ، وكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين ، فصنّف عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم ، وصنّف هم ذوو سرعة إلى الإخاء ، وسرعة في الانتهاء ، فقدّموا اللائمة ، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التروية ، واستحلّوا عاجل المحبة ،

(٢) الزكّانة : صدق الحس .

(١) جمهرة رسائل العرب ٦٧/٣ .

ولموا عن أجل الثقة ، فكانوا بذلك أهل لأئمة ، ولم يجد المحدثون^(١) إلا الصبر على تلك والاستعمال للرأى والاستعداد بالعدر عند الحاجة .»

وواضح أن يحيى بن زياد لا يتحدث هنا عن إخائه لابن المقفع ووداده له ، إنما يحدث حديثاً عاماً عن الإخاء ، فهو ينظر فيه نظرة عامة ، أو قل ينظر إليه من حيث هو نظرة كلية يرتفع فيها إلى الحديث عن حقيقته الجردة وما ينبغى أن يكفّل له من الوفاء . ويراه يقوم على البر ، ويتغلغل في بحث جوهره ، فيراه يحتوى مجموعة من الخصال النبيلة لا يتم كيانه بدونها وفي مقدمتها الكرم الذى يجعل الأخ يبذل لأخيه ماله ، والنجدة التى تجعل الأخ يبذل لأخيه دمه ، والصدق الذى يدل على صدق القلب وإخلاص السريرة ، والحياء الذى يكفّ صاحبه عن التناول وسوء الأدب وسورة الغضب ، والنجابة التى تحوط صاحبها بحسن الرأى وتبين حقيقة الأمر ، والزكاة أو صدق الحسّ الذى يكفّل لصاحبه صواب القول والرأى . ويقول يحيى بن زياد لما كان يتطلب الإخاء التحلى بجميع الخصال الحميدة كان على كل شخص أن يتأنى في اختيار أخيه وأن يتحسس حتى لا يتورط في الأخ السوء ، وهو ما يأخذ نفسه به . ومن حوله من الناس صنفان : صنف يعدّرونه لأنهم ممن يرون رأيه في تخير الإخوان ، وصنف لا يعدّرونه لأنهم يتسرعون إلى بذل إخوانهم إلى من يستحقه ومن لا يستحقه ، ولذلك سرعان ما ينتفض إخوانهم وتذوى صداقتهم إذ لا يُصيبون بها مواضعها الصحيحة من الإخوان الجديرين بالأخوة .

ومن الرسائل التى نَحَسَتْ هذا النحو من التجريد والنظر من أعلى إلى الموضوع الذى تتحدث فيه رسالة غَسَّان بن عبد الحميد في العتاب ، وهو يفتتحها على هذه الصورة^(٢) :

« أما بعد فإن الله جعل العباد أطواراً في أخلاقهم ، كما جعلهم أطواراً في صُورهم وجعل بينهم أموراً يتألفون عليها ويعملون أحلامهم فيها : من حُرِّم يتجالون بها ، وحقوقٍ يتنازعونها ، ومودةٍ يتعاطونها ، وأخوةٍ يتداوونها تُرعى

بوفاء ، وتؤدّي بأمانة ، وتضيق بتقصير ، وتُسْتَقَصُّ بخيانة ، ليس مَنْ أَدَيْتْ إليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدّي لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه ، وليس من ضيّعت منه بأشقى ممن ضيّعها فيما يُدْخِلُ من التّقصير عليه ، فإن من أخطأه الوفاء من أخيه فإنما يدخل عليه تقصير غيره ، ومن ضيّع الوفاء لإخوانه فقد أدخل النّقصَ في خاصّة نفسه ، والمرء يجد من أخيه إذا خانته بدلا ، ولا يجد عن نفسه إذا قصرت به متحوّلا ، وليس نقصٌ يستبدل به كنعقٍ لا يستطيع مُزايَلته .

وغسان يتحدّث عما بين الناس من حُرْمٍ وحقوق ومودة وأخوة ، ويرى أنه لا بد للأخوة من الوفاء الذي يحفظ على الإخوان عهودهم ، ولا بد لها من الأمانة التي تمنع الخيانة بين الإخوان وتحوّل بينهم وبين القطيعة المرذولة ، ولا بد لها من النهوض بجميع متطلباتها من الصيانة والثقة وتوطيب النفس على أن لا يقوم هجران بين الأخ وأخيه . ويأخذ غسان في تصوير معنى دقيق غاية الدقة ، وهو أن مَنْ يُؤدّي حقوق الأخوة إلى أخيه لعله أكثر منه سعادة بما يؤدّي إليه منها ، وكذلك من يضيع حقوقها لعله أشقى من أخيه الذي يغمّهُ تضييع هذه الحقوق ، لأنه إنما يدخله الغم بتقصير غيره ، أما صاحبه المضيّع لتلك الحقوق فإنه يُدْخِلُ لغم والشقاء والنقص على نفسه بنفسه ، والأول يجد من أخيه إذا خانته عوضاً في أخ آخر صادق ، أما الثاني فإنه لا يخسر شخصاً ولا أحمأ ، إنما يخسر نفسه التي بين جنبيه بما أدخل عليها من كترّب الخيانة ، وليست خسارة يمكن تلافياها ، الخسارة لا يمكن مزايَلتها ، ولا يجد صاحبها عنها حيوّلا ولا منصرفا . ويمضى غسان ليفصل القول في خيانة الأخ لأخيه وتضييعه لنعمة الوفاء التي أنعم الله بها على عباده ، وما يلبث أن يقول :

« ليس من كانت منه فجيرة لأهل الإخاء والحُرْمَةِ الذين ارتادوا ارتيادا واختاروا واختاروا فوق رأيه عليهم ، ووقع رأبهم عليه ، وارتضوه لأنفسهم ، وارتضاهم لنفسه ، واقتصروا عليه بمودتهم ، واقتصر عليهم بمودته ، فحملوه أخوتهم ، وحملهم أخوته ، واسترعوه الوفاء لهم ، حتى ثبت الله بينهم وبينه ما كان داعيا لكل رأى جميل ، نافيا لكل صنيع معيب . ، وأمرٍ مريب ، فأى

نَقْصٌ أَكْثَرُ وَأَيُّ دَنَاءَةٍ أَيْبَنُ مِنْ أَنْ يَكُونَ امْرُؤٌ بِمَنْزِلَةِ ثِقَةٍ قَدْ حَفِظَتْ مِنْهُ حُرْمَةً، وَاعْتَقَدَتْ بِهَا عَلَيْهِ أَمَانَةً، فَوَجِبَتْ مِنْهُ مَصَافَاةٌ، وَانْتِظَرَتْ مِنْهُ صِلَةٌ، ثُمَّ يَنْكَشِفُ عَنْ خِيَانَةِ وَغْدَرٍ وَقَطِيعَةٍ وَفَجِيعَةٍ؟

وغسان يصور هنا مذمة قطيعة الإخوان ، ويجعلها فجيرة فيمن أوْتمن فخان وعاهد فغدر ، وأي غدر؟ إنه غدر بالحرمة التي قامت بينه وبين إخوانه ، حرمة الوداد الصادق الذي لم يحدث فجأة ، إنما حدث عن طول اختيار وتفقد وتوقف وثبت ، فإذا مَنْ وثقتَ فيه وملكته زمام نفسك قدنكت كل عهوده ، بل قد طعن الأخوة المفقودة الطعنة التي ليس منها براء ولا إقالة . وأطال غسان في تصوير وقية واش به لصديقه وما يراه على نفسه وعلى صديقه من حقوق الأخوة وأن لا يأخذ بالظنة وأقوال الوشاة الكاذبين . والرسالة أشبه ببحث واسع في واجبات الإخوان وحقوقهم .

وعلى هذا النحو أخذ بعض الكتّاب ينمون الرسائل الإخوانية حتى غدت رسائل أدبية بديعة ، وكان ابن المقفع - كما أسلفنا - قد ترجم عن الفارسية كثيراً من الرسائل الأدبية التي تتصل بالأخلاق وسلوك الناس مع أولى الأمر في الحياة العامة كما تتصل بالسياسة وتدير الحكم ، وأيضاً فإنه ترجم قصص كليلة ودمنة ، وكل ذلك أخذ بعض الكتّاب يحاكونه ، من ذلك ما يذكره ابن النديم عن العتّابي من أن له رسالة في فنون الحكم ورسالة أخرى في الآداب^(١) ، ويذكر عن محمد بن الليث الكاتب أنه كتب ليجي البرمكي كتاباً في الأدب^(٢) ، وأن لسعيد بن هرون أحد خزنة دار الحكمة للمأمون رسالة في الحكمة ومنافعها^(٣) ، وأن للعتبي المتوفى سنة ٢٢٨ للهجرة كتاباً في الأخلاق^(٤) ، ومر بنا أر على ابن عبيدة الريحاني الكاتب في دواوين المأمون صنف كتباً مختلفة في الحكم والأمثال . وكل هذه الرسائل كان يُرادُ بها أن ترشد الناس في حياتهم إلى الخير بما شذم لهم من الأمثال وتفصل من الحكم . وأخذ بعض الكتّاب يُعَنِّونَ بالكتابة في السياسة ، على هدى ترجمات ابن المقفع فيها ، على نحو ما يذكر ابن النديم عن أبي دلف^(٥) العجلي^(٦) بن هرون ، واشتهر سهل بأنه استوحى كلما

(٤) الفهرست ص ١٧٦ .

(٥) الفهرست ص ١٦٩ .

(٦) الفهرست ص ١٧٤ .

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) الفهرست ص ١٧٥ .

(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

ودمنة في كتابة قصص على شاكلتها ، وسنفرد له حديثاً مستقلاً في الفصل التالي . ويقول ابن النديم عن علي بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد إنه « كان أحد البلغاء، وكان يتسلك في تصنيفاته طريقة سهل بن هر ون، وله من الكتب كتاب الجرحية وكتاب الحرة والأمة وكتاب الظراف^(١) » . وفي اسم الكتاب الأخير ما يشير إلى أن الكتاب عرفوا في هذا العصر الرسائل الأدبية التي يقصد بها إلى التفككة والترويح عن النفس .